اقبال العرب

على

دراسات اقبال

الدكتور ظهور احمد اظهر

المكتبة العلمية

لاهور - باكستان

إقبال العرب على دراسات إقبال

جمع واختيار وتقديم

الدكتور ظهور احمد اظهر

رئيس قسم اللغة العربية

جامعة پنجاب بلاهور

ناشر

المكتبة العلمية لاهور

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب : إقبال العرب على دراسات إقبال

جمع واختيار وتقديم: الدكتور ظهور أحمد اظهر
رئيس قسم اللغة العربية
جامعة البنجاب لاهور

الطبعة الأولى : ١١٠٠ نسخة

طبع فى : مطبعة المكتبة العلمية
١٥ شارع مدرسة البنات ، لاهور

ملتزم الطبع والنشر : خان عبيدالحق الندوى

المؤرخ فى : ١٨ من شهر ذى الحجه ١٣٩٧ھ
٣٠ من شهر نوفمبر ١٩٧٧م

ثمنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تحتفل باكستان ـ شعبا وحكومة ـ بالذكرى المئوية لشاعر الشرق وشاعر الإسلام العلامة محمد إقبال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ حيث أعلن رسميا بأن سنة ٧٧ سوف تكون سنة إقبال الأب الروحى للشعب المسلم الهندى وملهم الدولة الإسلامية باكستان بعد أن احتفلت خلال السنة الماضية بذكرى القائد الأعظم المئوية، الأب الروحى للشعب الباكستانى ومؤسس الدولة الأسلامية باكستان ! وإنه لمن حسن حظ الشعب الباكستانى أن يتيح له الاحتفال بالذكريين المئويتين لأبويه الروحيين فى السنتين المتواليتين وذلك بعد أن ذاق مرارة الإنفصال والتمزيق على أيدى أعدائه المتآمرين فى سنة ١٩٧١م ليكون له فى هاتين الذكريين عزاء وتعويضا لما فات ورجاء وبشرى لما يأتى !

إن باكستان لتحتفل بذكرى شاعرها الأكبر وفيلسوفها المبدع كما يحتفل العالم العربى الإسلامى بذكرى شاعره و فيلسوفه بل يحتفل بهذه الذكرى العاطرة العالم البشرى بأجمعه فى الشرق والغرب !

إنه لمن حق إقبال أن تحتفل باكستان بذكراه المجيدة الخالدة ومن حق إقبال أيضا أن يحتفل بذكراه الجميلة الطيبة العالم الإسلامى

كله بل من حق إقبال كذلك أن يحتفل بذكراه العاطرة النبيلة العالم كله فى كافة أنحاء الدنيا. إنه من حق إقبال أن يحتفل بذكراه كل باكستانى صادق مهما كانت الظروف المحيطة به ومن حق إقبال أن يحتفل بذكراه كل مسلم أينما كان ومهما بعد موطنه من أرض إقبال، ومن حق إقبال أن يحتفل بمولده وذكراه الطيبة كل إنسان يحب الإنسانية ويحب القيم الخلقية والمثل العليا ويؤمن بمستقبل البشرية الزاهر الأفضل !

إنه من واجب كل باكستانى أن يحتفل بذكرى إقبال لأنه أول من نادى بانشاء دولة إسلامية مستقلة فى شبه القارة ليعيش فيها كل إنسان مسلم حياة كريمة كما أراد له الله أن يعيش فى هذه الدنيا حياة الكرامة والحرية والرخاء، ومن واجب كل مسلم فى كل مكان أن يحتفل بذكرى هذا الشاعر الملهم والفيلسوف المبدع لأنه أراد أن يعيش المسلمون فى كل مكان حياة الأحرار السعداء الآمنين كما أراد لهم الله أن يعيشوا فى هذه الدنيا حياة القادة الأباة المجاهدين، وكذلك فمن واجب كل إنسان فى الشرق والغرب أن يحتفل بذكرى هذا الشاعر الموهوب والمفكر النابغة لأنه ساهم لخير البشرية كلها إنه أراد لكل إنسان أن يعيش حياة الأمن والإزدهار والسلام، وحياة الحرية والكرامة والرخاء !

إذن من حق إقبال أن نحتفل بذكراه المجيدة العاطرة لأنها فريضة إسلامية وفريضة إنسانية فى نفس الوقت . إن إقبال لم يعش لنفسه وحدها وإنما عاش من أجلنا جميعا، انه لم يعش لمسلمى شبه القارة وحدهم، أذاب قلبه من أجلهم داعيا لهم فى غدواته وروحاته ودافع عنهم وكافح من أجل مستقبلهم الأفضل الأزهر، وإنما عاش

للعالم الإسلامى والعالم الشرقى بل العالم البشرى كله، إن إقبال لم يكن يحنو ويشفق على الشعب الهندى المسلم وحده وإنما كان مشفقا حانيا على الشعب العربى المكافح شعب النبى العربى صلى الله عليه وسلم كما أنه كان يحنو ويشفق على شعوب الشرق كله وعلى الإنسانية كلها، لأن إقبال عبر عن عواطف البشرية كلها كما أنه عبر عن مشاعر العرب والمسلمين وشعوب الشرق المغلوبة على أمرها .

فاقبال إذن لم يكن شاعر مسلمى شبه القارة وحدهم أو شاعر العالم الإسلامى الشرقى وحده ، وانما كان من هؤلاء الآحاد الأفذاذ الذين قلما يجود الزمان بهم ، هولاء القادة العظماء الذين قادوا البشرية إلى حياة أفضل وتقدموا بالحضارة البشرية شوطا بعيدا وتركوا العالم على أحسن حال مما وجدوه عليها ! من هؤلاء المصلحين المخلصين الذين كرسوا حياتهم لنفع بنى آدم و وهبوا انفسهم من أجل خدمة الإنسانية والقيم الخلقية ، من هؤلاء القادة الأفذاذ كان إقبال ، شاعر الإسلام وشاعر الشرق ، وشاعر الإنسانية كلها !

إن إقبال ، رحمه الله ، قدكان علما من أعلام الإسلام ورائدامن رواد الحركة الإصلاحية الاجتماعية فى التأريخ الإسلامى الحديث كما أنه كان قائدا من قادة الفكر الحديث لا فى الشرق وحده بل فى الشرق والغرب معا. وهو يحتل مكانة بارزة بين مفكرى العالم الإسلامى الحديث ومصلحيه، فقد كان أوسعهم علما ومعرفة بمذاهب الفلسفة الإسلامية وتيارات الفلسفة الحديثة إلى جانب معرفته العميقة التامة بالعلوم الإسلامية والعلوم الحديثة كما أنه كان أكثرهم وعيا وإحاطة بالظروف الراهنة وأشدهم ابتكارا وأغزرهم مادة واستنباطا . وفوق ذلك كله فقد وهبه الله عبقرية

نادرة وذهنا خصبا غزيرا إلى جانب القلب السليم النقى والفكر الصائب الجامع .

إنك لا تجد له نظيرا فى الشرق الإسلامى كله فقد كان إنسانا فريدا وشخصية نابغة ، وكان مصلحا اجتماعيا وزعيما سياسيا فى نفس الوقت ، وهو الذى جمع بين الفلسفة والشعر من ناحية وبين العلم والدين من ناحية أخرى ، وهو الذى جمع بين الفكر والفن وبين التصوف والإصلاح الاجتماعى فى الوقت نفسه وأروع وأعجب من هذا وذاك أنه نجح نجاحا باهرا ووفق توفيقا شاملا فى هذه الميادين كلها !

ولو كان إقبال شاعرا نابغة لكفاه . ولوكان فيلسوفا مبدعا لكفاه ولو كان مصلحا اجتماعيا أو زعيما سياسيا لكفاه ولكن الله سبحانه وتعالى قد وهبه شخصية جامعة لهذه الأوصاف النبيلة كلها فقد قال الشعر باللغتين ـ الأردوية والفارسية ـ حتى فاق أقرانه وأتى بما لم يستطعه الأوائل من الشعراء وقد لا يستطيع الأجيال القادمة أن تأتى به كذلك ! وقد اشتغل بالفكر والفلسفة فوصل القمة ، وجمع فأوعى واستنتج فأبدع وقام بالإصلاح الاجتماعى وبذل من مجهوداته الجبارة التى لايمكن إنكارها أو تجاهلها وله مواقف نبيلة خالدة فى هذا الميدان من الحياة إن مجهوداته ومواقفه نحو الإصلاح الإجتماعى لم تكن مقصورة على أبناء وطنه من مسلمى شبه القارة وإنما تتضمن دعوة إصلاحية شاملة للعالم الإسلامى كله .

وكذلك فقد كان الرجل زعيما سياسيا من الطراز الأول فقد كان ، بفضل مهنة المحاماة ، يرافع قضايا المسلمين كما أنه كان يدافع عن حقوقهم ويعبرعن مشاعرهم بصفته عضوا فى المجالس النيابى الإقليمى

لبنجاب ، وله مواقف خالدة لا تنسى فى هـذا المجلس فقد كان سيفـا مسلولا على الأقطـاعية المستغلة وسياسة الإنجليز الاستعمارية والهنـادكة المرابيين المستغلين ، وتراه مشغولا دائمـا ، إلى جانب اشتغاله بالمحـاماة والفـلسفة والشعر ، بالسياسة الإسلامية المحلية والسياسة الإسلامية الدولية وهو يعانى شتى العوادى والأسقام التى أكلت وشربت على جسمه النحيل الضعيف فهو مرة يرأس الاجتماع التاريخى لرابطة مسلمى الهند المنعقد فى الله آبـاد ويقترح بانشـاء دولة إسلامية مستقلة فى المناطق الشمالية لشبه القـارة وأخرى نراه يشترك فى مؤتمرالعالم الإسلامى فى القدس أو يحضر مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن !

إن هـذا الزعيم المصلح كان قدهتف بـالدعوة ـــ الدعوة التى أثـارت ضجة فى أوسـاط الهند السياسية وأصبحت صيحة إسرافيـلية لإيقاظ الأمة الإسلامية الغافلة المغلوبة على أمرهـا والتى اعتبرهـا بعض الناس حلما بعيدا وفكرة مستحيلة ـــ إنه قدهتف بالدعوة إلى إنشـاء دولة إسلامية مستقلة لأنه رأى بأن أسس الحياة الإسلامية الخالدة تختلف تماما عن الأسس والطقوس التى تقوم عليها الهندوكية منذ آلاف السنين وأن الجمع بين هذه وتلك كالجمع بين المياه والنيران ولأنه قد أثبت لديه التجـارب وأبصرته الفراسة الإيمـانية أن الشعب المسلم الهندى المتخلف لا يمكن له أن يعيش حياة الأمن والهدوء مع الشعب الهندوكى ضيق الأفق الذى تقدم تقدمـا ملموسا تحت ستـار الاستعمـار الإنجليزى الغاشم وقـد حققت الحوادث التاريخية والتجارب الـواقعية أن إقبـال كان صادقا فى قوله مصيبا فى رأيه !

إنه أراد أن يكون للمسلمين وطنا مستقلا يعيشون فيه أحرارا آمنين

يعملون طبق الأسس الخالدة للشريعة الإسلامية الغراء فى جوٍ من الأخوة والمساواة الشاملة ليعشيوا فى محيط إسلامى مستقل عن الاستغلال الهندوكى والخلاف الطائفى الذى كان ينشأ بين الهنادكة والمسلمين ويسبب القتل والنهب والدمار وكذلك فكان إقبال يقصد من إنشاء هذه الدولة المستقلة أن يقدم دولة إسلامية نموذجية تقوم على النظم والأسس الإسلامية الخالدة وليحقق للعالم البشرى المعاصر أن الدين الإسلامى هو دين التقدم والحضارة وهو دين يصلح لكل زمان ومكان .

أما شعر إقبال فهو شعر إسلامى فى أصح معانى الكلمة وأدقها وهو شعر إسلامى خالص لأنه يقوم على الرسالة الخالدة التى جاء بها النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم ، هو يقوم على الفكر القرآنى الطاهر فمنه اتخذ أسس الحياة والقيم الخلقية والمثل العليا ومنه استعار المعانى والأفكار أنك لتقرأ شعره الأردى والفارسى فتجده كأنه ترجمة لآيات قرآنية أو تعبير عن الحكم النبوية ، هو شعر يحمل الرسالة الإسلامية الخالدة فى طياته رسالة الحياة الفاضلة النقية ورسالة القوة والعمل للمسلمين ، رسالة حب وإخلاص وأمل وتبشير بالمستقبل الأزهر والأفضل أن شعر إقبال فى جوهر معانيه ليس إلا تمجيد للإسلام وبعث للحياة القوية المليئة بالأعمال الصالحة والأمجاد الخالدة . هذه الحياة القوية التى يرضاها إقبال لكل مسلم ولكل مجتمع إسلامى !

وأما فلسفة إقبال فهى أيضا تقوم على الأسس القرآنية الخالدة والفكر الإسلامى الصحيح وهى تهدف إلى بناء مجتمع نقى نظيف قوى لطيف فى نفس الوقت وذلك على أسس التوحيد والرسالة والكرامة

البشرية ، إن فلسفة إقبال هى فلسفة التعادل والتوازن بين المجتمع وأفراده وتحافظ على حقوق كليهما وتعطى كل ذى حق حقه، فهى لا تؤمن بأن تضحى الأفراد فى سبيل المجتمع كما أنه لا تسمح بافساد المجتمع من أجل الأفراد ، إن إقبال لا يريد الفرد الفسل الضعيف المسيف الذى لا يقدر على خير لنفسه أو لابناء جنسه والذى لا يملك إرادته ولا مصيره كما أنه لا يحب أن يرى المجمتع المتداعى الواهى الذى لا ألفة ولا انسجام بين أفراده والذى لا يقدر على أن يتماسك أمام سيول الانهيار والدمار !

هذه الفلسفة أو هذه الرسالة هى التى خلدت إقبال وخلدت ذكراه ولم يكتف إقبال بأن يوجه هذه الرسالة أو هذه الفلسفة إلى أبناء وطنه من مسلمى شبه القارة الهندية الباكستانية وإنما وجه هذه الرسالة إلى أبنا دينه من مسلمى العالم كله بل وجهها إلى أبناء جنسه لتكون رسالة عالمية للبشرية كلها، فهو بهذه الرسالة أو هذه الفلسفة قدم من خدمة عظيمة للناس جميعا فعلينا نحن جميعا — مسلمى شبه القارة ومسلمى العالم كله والعالم البشرى فى الشرق والغرب — أن نحتفل بذكرى إقبال ونعترف بفضله وعظمته لأن إقبال، كما قال الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله، هو طراز العظمة الذى يتطلبه الشرق فى الوقت الحاضر وفى كل حين، لأنها عظمة ليست بالدنيوية المادية وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا وهو زعيم العمل بين العدوتين من الدنيا والآخرة ، قوام بين العالمين كأحسن ما يكون القوام !"

وأقول، والحق يقال، إن إقبال شاعر فيلسوف لا نظير له فى التاريخ البشرى فانك لن تجد شاعرا أوفيلسوفا كان شعره وفلسفته وراء

إنشاء دولة أو تكوين شعب إلا إقبال ! فهو الذى ألهم باكستان وكون شعره وفكره شعبا قويا ناهضا قام بانشاء دولة باسم الإسلام ومن أجل الإسلام ولن تجد شاعرا أو فيلسوفا اهتم به البشرية أشد ما يمكن وفى وقت قصير وبكل تكريم واحترام غير إقبال ! فهو الوحيد الذى أصبح أكبر مركز لاعتناء الدراسين والباحثين فى الشرق والغرب على السواء !

وقد كان أكثر الناس اهتماما بفكره وأشدهم عناية بآثاره هوالشعب العربى الباسل وعلى رأسهم الشعب المصرى الشقيق ! إن التعريف باقبال وبفلسفته وشعره يرجع فضله إلى المصريين ! كما أن ترجمة آثاره إلى العربية قام بها إخواننا المصريون وفى طليعتهم الدكتور عبدالوهاب عزام والشيخ الصاوى على شعلان والدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور محمد السعيد جمال الدين !

وكان لإقبال أمنيتين عظيمتين أو بعبارة أصح : حلما وأمنية ! حلم كبير وأمنية عظمية ! أما الحلم فقد تحقق وقد قام بتحقيقه الشعب المسلم الهندى الذى كان إقبال يذيب قلبه من أجله يدعو له ويتمنى له الخير ويبكى على بؤسه وشقائه ، هذا الشعب قام بتحقيق حلمه وكافح من أجله تحت القيادة الرشيدة للقائد الأعظم محمد على جناح وقامت باكستان ! وأما الأمنية العظيمة فهى أنه كان يتمنى أن يكون شعره بلغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تحققت الأمنية أيضا وقام بتحقيقه إخوته المصريون ! إخوة شاعر الإسلام محمد إقبال ! هؤلاء الإخوة الذين استضافهم الشاعر أكثرمن مرة! قد قام المضيفون بواجبهم نحو ضيفهم الكريم حق قيام، فقد تم ترجمة شعر إقبال إلى الشعر العربى وقام بهذا العمل الخالد إخواننا المصريون لا غير ! فنعم الضيف ونعم المضيفون!

وعاشت مصر وباكستان ! وعاش إقبال ! وعاش شعباه المصريون والباكستانيون !

وهذه المجموعة من المقالات والأبحاث القيمة التى جمعتها واخترتها خلال زيارتى الأخيره للقاهرة من المجلات المصرية المختلفة هى أيضا نتيجة لأقلام أعلام مصر إلا مقالا وحيدا فهو للأستاذ الكبير العلامة أبى الحسن الندوى ، وأنا إذ أقدم هذا الجهد المتواضع للقارىء الكريم أرى من واجبى أن أقدم عواطف الشكر إلى الأخ العظيم الأستاذ الكبير الدكتور عبدالودود شلبى مدير مجلة الأزهر والأخ جلال الدين أحمد الملحق الثقافى بسفارة باكستان بالقاهرة والأخ الكريم الأستاذ أمجد حسين والأستاذ الكبير الشيخ عبيدالحق الندوى فلو لا مساعدتهم لما أمكن لى أن أقوم بهذا العمل المتواضع وأقدمه للقارىء الكريم .

لاهور فى ١٨/١١/١٩٧٧م

د. ظهور أحمد أظهر

فريضة إنسانية

للأستاذ عباس محمود العقاد

تحية العظماء فى ذكراهم فريضة واجبة ، فى كل زمن ، وفى كل وطن .

ولكنها أوجب ما تكون فى الزمن الحاضر ، وفى الأوطان الشرقية على اختلافها ، ومن أقصاها إلى أقصاها .

هى أوجب ما تكون فى الزمن الحاضر ، لأنه الزمن الذى التبس عليه الأمر فى الحضارة الغربية ، بين تعظيم العظماء وإنصاف السواد والدهماء .

وهى أوجب ما تكون فى الأوطان الشرقية ، لأن الشرق اليوم ، فى إبان نهضته ، وما عرف الشرق نهضة قط إلا بقيادة زعيم عظيم .

فى العصر الحاضر أوشكت حضارة الغرب أن تلقى العظمة ملقى الشبهات والتهم ، وكادت أن تحوجها إلى طلب الإنصاف ، أو ما يسمونه فى لغة القانون «رد الاعتبار» .

ومنشأ هذه النكسة الوخيمة معروف مشروع .

منشأها الثورة على عظمة السلطان الجائر وعظمة الثروة المغتصبة ،

وعظمة الجاه الذى لم يكسبه صاحبه بالجد والكفاية ، وإنما انتقل إليه بميراث التقاليد .

إن إنكار هذه العظمة حسنة وفضيلة ، لأن تعظيمها إنما هو تعظيم للطغيان والسرقة والاغتصاب ، والجهالة الموروثة .

ولكن الشعور العام ــ شعور الجهلاء وأشباه الجهلاء ــ ينزلق من مجراه السليم المأمون إلى غير مجراه بغير انتباه .

فلما تقدم الزمن وتواترت على الألسنة كلمات السخط على العظماء المزيفين ، خيل إلى بعضهم أن العظمة كلها محل اشتباه واتهام ، وأنه لا توجد فى الإنسانية عظمة جديرة بالإكبار والثقة والإعجاب .

ومنذ أيام كان بعضهم يناقشنى فى أمر من الأمور الاجتماعية فجرت على لسانه كلمة «الأرستقراطية الفكرية» فى معرض النقد والاستنكار .

قلت يا صاحبى : إن الأرستقراطية الفكرية وكل أرستقراطية من قبيلها ــ إنما هى شرف للإنسانية وللأمة التى تظهر فيها ، إذ يشرف الأمة ــ كما يشرف الإنسانية ــ أن يكون بين أبنائها أناس ممتازون بالفكر النابغ والخلق الرفيع والكفايات النفسية أو العقلية على اختلافها ، ومن الحطة للأمة ، وللإنسانية عامة ، أن تتجرد من كل امتياز أو رجحان فى الأفكار والأخلاق .

إن هذا الانزلاق من تحقير العظمة الزائفة ، إلى تحقير كل عظمة ــ آفة العصر الحاضر فى الحضارة الغربية قبل غيرها ، ولهذا نقول إننا خليقون أن نتقى عدواها جهدنا ، وأن نضاعف العناية بالعظمة على قدر حاجتها إليها ، بل على قدر حاجتنا نحن إلى العظمة والعظماء .

وأما تخصيص الشرق بهـذه الفضيلة فى زماننا هـذا فهو من فعل التاريخ الماضى ، ومن فعل الرجاء فى المستقبل ، على هدى ذلك التاريخ.

إن الشرق بجميع أقوامه ينظر إلى العظمة نظرته إلى الأبوة ، ويكاد يحسبها من قرابة اللحم والدم التى ترتبط بها البنية العضوية فى الأحياء .

وعندنا فى اللغة العربية «الشيخ» هو المعلم ، والشيخ هو الرئيس ، والشيخ هـو إمام الطريق ، والشيخ هـو رب الأسرة والقبيل ، والشيخ هو المرشد وإن لم يـكن من الشيوخ .

وعندنا فى اللغة العربية يتلاقى معنى الأخـوة بين الاخوان من أب وأم ، وبين الإخوان فى العمل الواحد والاخوان فى العاطفة الواحدة .

ونهضاتـنا فى الماضى المعلوم نهضات يتـولاها زعـيم ويمشى على خطاه شعب واثق به مطمئن إليه .

فى هـذا الـزمن ، وفى الأوطان الشرقـيـة ، لا عظمة أولى بالتحية والإحياء من عظمة إقبال .

إن الشرق ما زال ، ولن يزال ، بحاجة إلى عظمائه النابغين .

وإن «إقبالا» هو طـراز العظمة الـذى يتطلبه الشرق فى الـوقت الحاضر ، وفى كل حين .

عظمة ليست بالدنيوية المادية .

وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا .

فالعظمة الدنيوية المادية قد أغرقت الغرب فى الجحود والقنوط ، ودفعته إلى النزاع والعدوان بـين الأمم وبـين الطوائف ، وبين الطبقات

وبين الآحاد ، وإذا تكشفت النفس الغربية عن شيء لا ريب فيه ، فانما تتكشف عن حيرة لا تفقه معنى للحياة .

والعظمة الأخروية التى تعرض عن الدنيا قد هبطت بالشرق إلى حضيض المهانة والمذلة ، وجرت عليه نكبات الاستعمار والاستغلال .

إنما العظمة من قبيل عظمة إقبال تصلح للشرق فى زماننا ، وتستحق منه التحية والإحياء فى كل عام ، بل فى سائر الأيام .

صوفى على الطريقة الوسطى .

أو زعيم من زعماء العمل بين العدوتين من الدنيا والآخرة : قوام بين العالمين كأحسن ما يكون القوام .

وحيثما انقسمت الصوفية قسمين ، كان إقبال ، إلى جانب أفضل القسمين ، وأصلحهما للعمل وإذكاء النخوة وشحذ الهمة وإيقاظ الضمير .

هناك الصوفية التى تؤمن بالثبوت ، والصوفية التى تؤمن بالفناء .

فى أى جانبين إقبال ؟

فى جانب الثبوت .

وهناك الصوفية التى تحسب العالم وهما باطلا وخدعة مزدراة ، والصوفية التى ترى فى العالم مظهرا لجمال الله وإرادة الله وحكمة الله .

فى أى الجانبين إقبال ؟

فى جانب الحكمة والإرادة والجمال .

وهناك الصوفية التى تقول للحياة «نعم» والصوفية التى تقول للحياة «لا» .

فى أى الجانبين إقبال ؟

فى الجانب الذى يقول «نعم» ويؤكد «نعم» ويعيدها مع النعمة والنعيم .

إن أمثال إقبال أجمل مثال للعمل بين الواقع والخيال ، وإنه لهزيل ذلك الرأى الذى يقول ان العمل يستغنى عن الخيال ، أو أن الخيال من صفات الحالمين وليس من صفات العاملين العالمين .

كلا . لا يستغنى العمل عن الخيال ، ولا يستغنى الخيال عن العمل . فقد كان كل عمل عظيم خيالا كبيرا قبل أن يبرز ويستقر به القرار فى عالم الأعمال .

كانت «الباكستان» كلها حلما من أحلام إقبال منذ ربع قرن من الزمن ، فأصبح الحلم اليوم دولة تضم بين جوانحها مائة مليون من النفوس ، يترجمون ذلك الحلم الرائع كل يوم إلى أعمال وآمال .

وهكذا تكون العظمة التى تحيينا ويحق علينا أن نتذكرها بالتحية والإحياء .

عظمة صوفى يعمل .

وعظمة عامل يتصوف .

عظمة عالم يثير النفوس بالأحلام ، وليس بحالم فى منام ، أو قاعد مجفل من الزحام .

وإذا وجب للعظماء حقهم فى كل زمن ، وإذا كان هذا الحق أوجب ما يكون على الشرق فى هذا الزمن ، وإذا نظرنا حولنا نبحث عن مثال ... فذلك المثال هو إقبال ، وذكرى إقبال .

إقبال شاعر الإسلام

للدكتور محمد حسين هيكل

نحتفل اليوم مع الباكستان بذكرى شاعرها الأكبر محمد إقبال . فقد أفلت شمس حياته فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٨ عن خمس وستين سنة ، ومن حق إقبال أن تحتفل الباكستان بذكراه ، وإن كان قد اختار جوار ربه قبل تسع سنوات ونصف السنة من إنشائها . فقد كان هو صاحب الوحى الأكبر بها .. وسيظل اسمه العلم الخفاق فى سمائها ، وسيذكره أهلها ما ترنم بشعره العذب القوى مترنم ، وسيظل هذا الشعر مئات السنين يترنم به كل رجل وكل امرأة فى هذه الدولة الاسلامية الفتية كما يترنم المتكلمون بالعربية اليوم بشعر الخالدين من شعرائهم الأعظمين.

ومن حق إقبال أن يذكره فى مثل هذا اليوم كل مسلم بل كل مفكر فى الوجود . فقد طلع هذا الرجل على العالم الاسلامى ، وعلى العالم كله ، بفلسفة جديدة صاغها شعرا فاذا هى تهز المشاعر والقلوب ، واذا هى تثير كثيرين من عظماء العالم فينظرون نظرات إعجاب إلى هذا المسلم الذى ولد فى الهند ونشأ بين أهلها ثم أعلن على الناس فلسفة شعرية سائغة لا تتفق مع الفلسفة الهندية فى شىء ، ويستحسن لذلك فى حناياها عالم جديد ودولة جديدة . أما الدولة الجديدة فهى باكستان ، وأما العالم الجديد فهو عالم الإخاء الإنسانى فى ظلال التوحيد والإيمان

بالذات ايمانا تدفع فيه المحبة إلى العمل والدأب لإنشاء عوالم فكرية جديدة تزيدنا إقبالا على الحياة ، وحرصا على الخلق والانشاء فيها .

كان أسلاف إقبال من البراهمة ، ثم إن أحدهم اعتنق الإسلام من عهد بعيد ، من عهد الامبراطور المغولى «أكبر» وتصوف جد من أجداد إقبال وكتب فى التصوف كتبا بالفارسية . ولما شب إقبال وبدا ذكاؤه درس فى بلده ثم التحق بكلية الحكومة فى لاهور ، وهناك اتصل بالمستشرق الإنجليزى سير توماس أرنولد ، فلما حصل على درجته النهائية التحق محاضرا بالكلية الشرقية ثم بكلية الحكومة بلاهور ، ولم يمكنه ضعف بصره من الالتحاق بخدمة الحكومة فأخذ يقرض الشعر . لكن نفسه الشديدة التواق للمعرفة وللعلم لم يكفها ما حصل إلى يومئذ ، فلم يمنعه أن بلغ الثانية والثلاثين من عمره من السفر إلى إنجلترا والالتحاق بجامعة كمبريدج ثم الانتقال منها إلى جامعة هيدلبرج وإلى ميونيخ بألمانيا. وحصل على الدكتوراه من هناك كما درس القانون وحصل على شهادة من انجلترا تؤهله للاشتغال بالمحاماة فى بلاده . وفى سنة ١٩٠٨ عاد إلى الهند واتخذ المحاماة مهنة لكسب العيش وظل مشتغلا بها إلى ما قبل وفاته بأربع سنوات . لكن دراسته واشتغاله بالمحاماة لم يصرفاه عن الشعر وعن الأدب ، كما أن دراساته فى أوروبا فتحت أمامه آفاقا من التفكير أقام عليها مذهبا فلسفيا جديدا هو الذى تمخض عنه قيام باكستان، وهو الذى كفل البقاء لإقبال بما خلعه من شعره على هذا المذهب من قوة وجلال .

وقد استمد إقبال مذهبه من عناصر الحياة المحيطة به ، ومن الجو الفكرى السائد حوله . فقد كان يعيش فى الهند حيث

يختلط المسلمون بغيرهم من الكثرة الهندية التى تدين بالبرهمية أو البوذية أو الهندوسية أو غير ذلك من مذاهب الهند وعقائدها . وكان يظله فى محيطه الإسلامى جو من التصوف الفارسى الذى عنى به جده وألف الكتب فيه . وكان هذا التصوف الفارسى يتأثر بمقدار غير قليل بالفكرة الهندية الدينية التى ترى الحياة عبئا ثقيلا ، وترى العمل مصدر شقائها وآلامها ، وتؤمن بأن رغباتنا هى علة بؤسنا ومتاعبنا ، وبأنا لو سمونا فوق الرغبة وتخلصنا منها وعزفنا عن العمل وأخلدنا إلى السكينة المطلقة استطعنا أن نبلغ مرتبة النرفانا الهندية أو مرتبة الإشراق الصوفى . فلما اتصل إقبال بالحياة الغربية وبالتفكير الأوروبى ورأى بلاده تخضع لنير هؤلاء الأوربيين الذين يؤمنون بالعمل وبالبأس وبالقوة ، أخذ يتجه بتفكيره اتجاها جديدا ، وأخذ يضفى على تصوفه معانى تخالف ما يجرى به التيار فى الهند والصوفية الفارسية ، وأخذ فى الوقت نفسه يرى فى المادية الغربية من بواعث الغرور أسبابا لشقاء الحياة فالتمس طريقا جديدا فى الحياة آمن بأنه الوسيلة لسعادة قومه أفرادا وجماعة ، وبأنه منجاتهم من المذلة التى أركسهم فيها ذلك العزوف عن الحياة والعمل فيها لإنشاء خلق جديد .

والنظرية التى ابتكرها تفكير إقبال وأضفى عليها خياله الشعرى إبداعا وجمالا وقوة ، هى نظرية الذاتية . ومدلول الذاتية عند اقبال يختلف عن مدلولها عند غيره . الذاتية عند بعضهم هى الأنانية التى تجعل الفرد لا يفكر إلا فى نفسه ، ولا يعمل إلا لنفسه ، والتى تدفعه ليرد كل ما فى الحياة إلى نفسه . والذاتية عند البعض مصدر الشرور لأنها تغرينا بالتماس ملاذ الحياة وأهوائها . أما عند إقبال فالذاتية تختلف عن هذا التصوير أشد الاختلاف . الذاتية عنده هى الروح المنشىء الذى أودعه

الله الإنسان وجعل العمل والدأب فيه وسيلتنا إلى انتشار هذه الروح فيما حولنا وإبراز ما تنطوى عليه نفوسنا من قوة وخير . وكما ينمو جسمنا حتى يبلغ كماله ، وكما تزهر الشجرة وتثمر ، كذلك يجب أن تنمو الذاتية حتى تبلغ كمالها ، ويجب أن تزهر وتثمر وهى لا تنمو بحكم الطبيعة كما ينمو الجسد ، بل تنمو بالسعى والعمل الدائب الذى لا ينقطع . ونموها وازهارها وأثمارها هو الذى يجعل للحياه قيمتها ، وهو الذى ينشىء فى الحياة جديدا ، وهو الذى يضفى علينا القوة ويجنبنا تحكم الغير فينا ، أما القعود عن العمل فيجعلنا عالة على غيرنا ، نتسول من فضله ونصبح أذلة له ، ونفقد بذلك حريتنا . هذه الحرية التى هى ملاك الذاتية والتى تتيح لنا القوة على الحياة والتسلط على الطبيعة، وهى التى تجعل الفرد الموهوب لا يقف بجهاده فى حدود شخصه ، بل يبذل جهده للارتقاء بمجتمعه عن طريق الدعوة إلى الحق ، دعوة يستهين فى سبيلها بكل تضحية ، لأن التضحية فى سبيل الحق تزيده نصرا وتعزيزا .

ولم يكتف إقبال بأن يتجه برسالته هذه إلى أبناء وطنه المسلمين فى الهند ، بل توجه بها إلى مسلمى العالم كافة ، وقصد بها أن تكون رسالة عالمية للناس جميعا حيثما كانوا من أرجا الأرض ..

وقد ترجمت بعض كتبه للإنجليزية فاعترض عليه بأنه متأثر فيما كتب بنظريات الفيلسوف نيتشه عن الرجل الكامل أو السوبرمان، على تعبير الفيلسوف الألمانى، فدفع إقبال هذا الاعتراض بأنه يدعو للأخوة التى دعا إليها الإسلام على أن تكون أخوة بين أحرار وأن القوة هى التى تجعل لهذه الأخوة قيمة، وهى التى تقيم السلام بين المؤمنين بالذاتية كما يصورها . أما أن تكون أخوة بين أحرار وعبيد فأسطورة أثبت التاريخ غير مرة أنها لن تصدق فى الواقع أبدا .

تختلف نظرية إقبال فى الذاتية مع مذاهب الهند على اختلاف العقائد السائدة فيها . لهذا رأى اقبال ونظريته إسلامية الأساس، إن المسلمين وغير المسلمين من أبناء الهند لا يستطيعون أن يعيشوا أمة واحدة ودولة واحدة ولذلك دعا إلى انشاء الباكستان ثم توفى قبل أن يشهد بعينه تحقيق دعوته . وهو إنما أرسل الصيحة بهذه الدعوة لأنه رأى أن أساس الحياة الاسلامية يختلف فى نظره عن أساس الحياة الهندية فرأى الخير فى أن تكون ثمة دولتان تتجاوران فى حسن مودة حتى لا يجنى اختلاف الأساس لحياتها الروحية على حسن مودتها .

فلسفة اقبال وأساسها

للدكتور عبدالوهاب عزام

محمد إقبال شاعر نابغة، وفيلسوف مبدع ، شاع ذكره ، وانتشر شعره وفلسفته فى الهند، ولا سيما بين المسلمين فيها . ثم اتسع صيته ، وشاعت آراؤه فى العالم ، ولا سيما بعد أن قامت دولة باكستان العظيمة . وهى حقيقة تخيلها والناس منه يضحكون ، ويقظة حلم بها والبائسون به يسخرون .

ولا يزال أنصاره وتلاميذه يكثرون على مر الأيام ، إعجابا بفلسفته ، فلسفته الحياة والأمل والعمل ، وإكبارا للمفكر المؤمن والفيلسوف الذى لا يأسره الزمان ، ولا يخضعه تقلب الحدثان ، والشاعر الذى ينفخ الحياة فى الموات وينضر فى الفقر ألوان النبات ، ويشعل الجمر الخامد والرماد الهامد .

ولا أعرف كشعر إقبال ، معرفا بالحياة داعيا إليها ، معظما الإنسان مشيدا بمكانته فى هذا العالم نافثا الأمل والهمة والاقدام فى نفوس الناس . وقد حرصت على أن أعرف به قراء العربية آملا أن يرفع شباب العرب إلى مستوى يضيء فيه الإيمان ، وتشتعل فيه الحياة ، ويرتفع فيه الإنسان إلى المعالى آنفا من الدنايا مقدما على العمل ، بأمل

لا يكبو، وعزم لا يخبو ، وابتسام للشدائد وهجوم على الأهوال وثقة باليسر بعد العسر ، والفجر بعد الظلمة .

بنى إقبال فلسفته على الذاتية وقال إنها حقيقة العالم ، ودعا الإنسان إلى النظر فى نفسه ، والعناية بها وإخراج ما فيها من قوى كامنة ومواهب مستسرة . وأدار شعره على هذا الفلك فأخرج بدائع الصور ، وروائع الأفكار فى تسعة دواوين باللغتين الفارسية والأردية .

وكانت منية لإقبال عظيمة ذكرها فى شعره ، وحدث بها أصحابه ، أن يكون شعره فى اللغة العربية لغة القرآن . وقد يسر الله بعض هذه الأمنية فى أربعة دواوين ترجمت إلى العربية .

يقول إقبال فى مقدمة ديوانه « أسرار الذات » ردا على الأستاذ الفيلسوف بريدلى وغيره .

الحياة كلها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود فى الخارج . ولا ريب أن هذا التصور يخالف كل المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيجل من متأخرى الإنكليز ، ويخالف مذهب وحدة الوجود الذى يقول إن مقصد الحياة الإنسانية أن تفنى نفسها فى المطلقة ، كما تفنى القطرة فى البحر .

إنى أرى أن هدف الإنسان الدينى والأخلاقى إثبات ذاته لا نفيها . وان كماله على قدر إثبات ذاته ، وتمكين استقلالها . ومثله الأعلى هو الذات العليا التى لا يشبهها ذات ، الخالق جل وعلا . كلما تخلق الإنسان بأخلاق الله كما جاء فى الأثر ، وقارب هذه الذات العليا الوحيدة قرب من كماله .

وتنقص ذاته على قدر بعده من الخالق . وأكمل الناس أقربهم إلى الله تعالى ، وليس المقصود من القرب أن يفنى وجود الإنسان فى وجود الخالق كما ترى فلسفة الإشراق ، بل أن يثبت وجود الإنسان ويستحكم .

ويرى إقبال بعد هذا أن الحياة جهاد دائم ، ورقى مستمر ، وأنها تخلق مطالبها وتعمل لنيلها ، وتقتحم العقبات إليها .

وأشد العقبات فى طريق الذات المادة أو الطبيعة ، ولكن هذه الطبيعة ليست سرا كما يقول حكماء الإشراق ، بل هى تعين الذات على الرقى . فان قواها الكامنة تتجلى فى مصادمة هذه العقبات . وإذا قهرت الذات الإنسانية العقبات المادية بلغت منزلة الاختيار ، وخلصت من قيود الجبر ، ونالت الحرية الكاملة .

وشر ما يصيب الإنسان فى هذه الحياة أن تقهره المادة وتحيط به ، تسد عليه الآفاق . ومن قوله فى ديوان « ضرب الكليم » أن الفرق بين الكافر والمؤمن هو أن الكافر يضل فى الآفاق ، والمؤمن تضل فيه الآفاق .

إنما الكافر حيران ... له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كونا ... تاهت الآفاق فيه

ونقل من كتاب المثنوى لمولانا جلال الدين الرومى ، قصة فى هذا المعنى : إن حليمة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم افتقدته يوما فجزعت عليه وانطلقت تنشده فلقيها جبريل فقال : لا تخشى أن يتيه محمد فى هذا العالم فان هذا العالم يتيه فيه .

ذلكم مركز الدائرة من فلسفة إقبال فلسفة الحياة القوية الآملة العاملة التى تقصد إلى تسخير العالم والسيطرة عليه ، والتى تطمح دائما إلى مثلها الأعلى ، الله تعالى الذى لا يحده زمان ولا مكان ، ولا يعجزه شىء. ولا أعرف مثلها فلسفة ترفع من شأن الإنسان، وإعداداً له للجهاد فى هذه الحياة جهاد المؤمن المتوكل الواثق بنصر الله .

ويقول إقبال ويؤكد القول أن فلسفته هذه فلسفة إسلامية ، أصلها القرآن ، وقال لمجادليه فيها من علماء أوربا : إنه يحاجهم بفلسفة أوربا التى يعرفونها ، ولو شاء لحاجهم بما فى كتب فلاسفة المسلمين وكتب الصوفية لإثبات آرائه . ويقول إن فلسفة أسرار الذات مأخوذة من صوفية المسلمين وحكمائهم .

وشعر إقبال يضىء بهذه الفلسفة ويشب النار فيها . وهو اليوم على لسان شباب المسلمين و شيوخهم فى باكستان وغيرها . ويرى إقبال أن الحق إن لم يكن فيه حرقة القلب فهو فلسفة ، فان مسته نار القلب كان شعرا . لهذا آثر إقبال أن يخرج فلسفته صورا شعرية ليتصل الحق بالقلب فيعمل فى تسيير الإنسان وتقويته .

يقول فى مقدمة أسرار خودى (أسرار الذات) انى أقصد فى دواوينى إلى أن أضع أمام أعين الناس مثلا إنسانية عالية .

ومذهب إقبال فى الفنون عامة انها تقصد إلى أن يتخلق الإنسان بأخلاق الله ثم يحقق خلافة الله فى الأرض . ويرى كذلك أن الفنون تقوم بقوة النفس التى أنشأتها وقوة إيحائها وتأثيرها فى الطبيعة والإنسان. فكل فن اتصل بالضعف والفساد هو فن لا قيمة له. والفن لا يقوم بنفسه فان مقصود الفن الحياة وبها يقوم .

ويقول إقبال كذلك إن الفنان الأمثل هو الذى يجمع هيامه بالفن بين الجمال والقوة . ويقول فى « ديوان ضرب الكليم » :

ولنغمة من غير نار نفخة ما الحسن إلا بالجلال يحاك

ويقول فى المقدمة التى كتبها للديوان المصور للشاعر غالب :

« لعل إشارة واحدة من نفس دنيئة تغوى الناس بغنائها أو تصويرها شر على أمة من جيوش جنكيز خان وآتيلا » .

واتباعا لمذهبه فى تسخير الإنسان الطبيعة يرى إقبال أن الفن لا ينبغى أن يكون محاكاة للطبيعة بل ينبغى أن يكون تأثير الإنسان فى الطبيعة . والفنان الحق خلاق لا مقلد :

« إن فى سيطرة المرء على غير المرء ، وابتغاء ما يسمى فى العلم ملاءمة الطبيعة ، اعترافا بسيادة الطبيعة على روح الإنسان ، وإنما القوة فى مقاومة تأثيرها لا فى خضوعنا لعملها . إن مقاومة ما هو كائن طلبا لما ينبغى أن يكون هو حياة وصحة . وما عدا هذا علة وموت » .

كذلك يطبق إقبال رأيه فى الفنون كلها :

أن سرت فى اللحون دعوة موت حرم الناى عندنا والرباب

وأما الشعر خاصة فيرى إقبال أنه جمال و جلال وأنه حياة وأمل وأن الشاعر الحق يدعو أمته إلى الجمال والخير والقوة ، ويحدوها إليها ويبلغ بها الغايات القاصية ، كما يهوى بها الشاعر الفسل الضعيف المسيف بأمته إلى الدركات السفلى .

وقد بين إقبال فى « أسرار خودى » أثر الشاعرين كليهما ثم قال مخاطبا الشاعر :

صيرفى القول ! أن تبغ النجاه فاجعلن معياره نار الحياه
نير الفكر يقود العملا مثل برق قبل رعد جلجلا

إلى أن يقول :

صاح ! فيم النوح مثل البلبل وإلام العيش بين الظلل
ابن عشا حيث لا تبنى إلا فوق تلتقى فيه رعود وبروق

ويوصى إقبال بالرجوع عن ترف العجم ورخاوتهم إلى خشونة العرب وشظفهم وقوتهم وجهادهم :

من بفكر صالح فى الأدب ؟ ارجعن يا صاح شطر العرب
وسليمى العرب يا صاح أعشق اطلعن صبح الحجاز المشرق
من رياض العجم جمعت الزهر وبروض الهند سرحت البصر
فاسربن حر الصحارى يا صديق أشربن من تمرها الراح العتيق
أسلمن رأسك يوما صدرها والفن فى حرها وصرصرها

هذه أصول فلسفة إقبال ، وعمدة آرائه كما صورها فى شعره فالإنسان ذاته وقوته وحريته وجهاده ، والجماعة الإنسانية ، خصائصها ومزاياها وسيرها وغايتها وقوتها التى لا تحد ، وعزمها الذى لا يبعد عليه أمد ، كل هؤلاء موضوع شعره .

والعرب الأولون الذين انتشروا بالإسلام فى أرجاء الأرض يدعون إلى توحيد الله وتوحيد الأمم ، ويقتحمون العقبات ، ويخوضون الأهوال هم مثل إقبال الأعلى فى الأمم .

هذه لمحات من فلسفة إقبال وشعره ، كما يحاول الواصف أن يصف روضة فى زهرة وبحرا فى قطرة ، وكتابا فى سطر .

وذلكم إقبال العظيم الذى نحتفل اليوم بذكراه تعريفا به ودعوة إلى مذهبه ، وتحريضا على قراءة شعره وفلسفته، وهما تصوير الحياة الدافقة، وحداء القافلة السائرة الجاهدة .

وليت شعر إقبال يملأ أفكار شبابنا ويشغل ألسنتهم ليجدوا فيه تصديق قول إقبال :

لم أدر سر الشعر إلا نكتة سير الشعوب تزيدها تفصيلا
الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة أو كان فيه صور أسرافيلا

إقبال من أولئك الآحاد

الذين وهبوا أنفسهم لنفع الانسانية

للدكتور محمد كامل مرسى

إنه ليطيب لجامعه القاهرة أن يحتفل فى دارها بذكرى رجل وهب قلبه وعقله للناس أجمعين . يطيب لها ذلك لا على جهة أن فيه إشادة بذكر ذلك الرجل ، فان ذكره الحميد يملأ الأسماع جميعا ، ولا على جهة أن فيه تعظيما له ، فان إعظامه يملأ القلوب جميعا . ولو كان ذلك مرادا لأعيا المحافل مهما تعددت أن تبلغه ، ولقصرت الألسنة مهما أفاضت عن أن تصل إليه . فما بالكم بدقائق معدودة يلم كل قائل فيها بكلمة عن رجل عمرد فى قياس الأثر العتيد والعمل المجيد عمر الخالدين .

إنما هذه الاحتفالات مناسبات نستثمرها لتمجيد قدرة الله فى أولئك الأفذاذ الذين يصطفيهم الجيل بعد الجيل ، فيخصهم بالصفات الأستثنائية العالية ، ويفيض عليهم بطرف من حكمته وقبس من نوره ، فيتبعون سنن رسله فى هدى الناس وتوجيههم إلى بلوغ ما يريدون من خير للإنسانية ليكون من ذلك دافع للشباب فى اعتناق الأسوة عنهم والسير على طريقتهم .

وهذا يـوم إقبال . يـومه الذى فى مثله من ثمانى عشرة سنة خلت فارق الحياة الدنيا إلى دار الخلد ، فعمت المصيبة فيه الأرض جميعا ، لعلها لم تنخلع لها أفئدة الذين من حوله أولئك الذين وثقت بينه وبينهم صلة شخصية أو ربطتهم به آصرة من أواصر أو الوطن ، مما يـكون أثرها انفعالا فى العواطف ، وخفـقانا فى القلوب ، من تـاريخ الأحزان وآلام الأشجان ، ولـكنها بـلا ريب قـد جـزعت لها عقول العالمين جميعا ، لأنها هى التى تلقت الصدمة فيه ، وعدمت بفقده مدد الزاد الذى يغذيها ويقومها ويقويها .

ذلك اليـوم من عام ١٩٣٨ الذى استعبسناه واستنحسناه وسخطنا عليه قد غدا بعد ذلك يوما مرقوبا فى دورة الـزمن نحسب ميعاده وننتظر ميلاده ونعتده موسما نقيم فيه الشعائر ونؤدى المناسك تعبداً للإنسانية وبرا بخدامها الأوفياء المخلصين .

ذلك اليـوم من عام ١٩٣٨ الـذى وجم فيه الناس لـوفاة الزعيم المصلح العظيم قد صار مثله من كل عام بعد ذلك العام منبهة للعقول . تعبق فيه أنفاس تلك الـروح الزكية فتنفخ فى همم الشباب المأمول مـا يستحثها للعمل وتقوية الذات وتـكريم النفس وتوقد عزائم الصبا المرجى فتدفعها إلى الاستبسال فى بلوغ أبعد غايات الـكمال .

لم يـكن إقبال ابن پاكستان وحدها ولا خادم الشرق وحـده ولا الحانى على العرب وحدهم . ولم يـكن كـذلك شاعر الإسلام وحـده ، بـل كان من أولئك الآحاد الذين وهبـوا أنفسهم لنفع بنى آدم وخـدمـة الإنسانية . كان رائدا من خير رواد الإصلاح فى العصر الحديث .

إن يكن إقبال قد اشتهر بأنه شاعر الإسلام لكثرة ما تغنى بمحاسن الإسلام ومآثره لقد كان من أصدق المصورين للنزعات الإنسانية وأبرع المستشفين لخفايا النفوس وخبايا الضمائر وتحركات القلوب . كان شعره يفيض بالحكمة وبالمثل العمرانية العالية الشاملة .

وإن يكن إقبال قد أكثر من ذكر العرب والمسلمين فانما كان ذلك منه لما رأى من أن المسلمين غافلون عن مقاصدهم العامة ، ولم يكن عصبية منه لوطن أو أمة . انه هو القائل : «إذا عدت القومية أعلى درجات الرقى الإنسانى فهى عندى أكبر لعنة على الإنسانية» وهو القائل: «الإنسان المثالى هو الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بايمانه ويقينه ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والشعوب والألوان بانسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده عن الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة» .

إنما كان إقبال صاحب دعوة تقوم على أن الإنسان خليفة الله فى أرضه . فعليه أن يتخلق بأخلاق الله . وإنه على قدر ما يصيب من ذلك يكون قربه من الله .

فهو يرى أن هدف الإنسان الدينى والأخلاقى هو إثبات ذاته لا نفيها . وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف . وعلى قدر بعده من الخالق تنقص فرديته . والإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله . فالإنسان إنما يقوم بذاتيته أى بما يبلغه من الكمال العقلى والخلقى . وهو لا يستوفى حظه من هذا الكمال إلا إذا عرف نفسه حق المعرفة وأخذها بالتنمية والتقوية ، ووثق بها ، وركن إليها ، واستغنى بها عن غيره ، وعمل وجد ، وسعى وكد ، وتعشق الشرف والمعالى ، وخلق لنفسه

المثل الجليلة والمقاصد النبيلة . لا يبلغ مقصدا إلا ابتغى بعده مقصدا أرقى . ولا يحقق مطلبا إلا تطلع إلى مطلب غيره أسمى .

يسخر كل ما يصادفه فى طريقه من صعاب . ويذلل كل ما يعترضه من صعاب . لا يحول بينه وبين أمله نصب ولا مشقة . ولا تصرفه عنه رغبة ولا تصده عنه رهبة . لا يحسب لغير الله حسابا . ولا يرجو من غيره ثوابا . ولا يخشى غير عقابه عقابا . بذلك يطرد عن نفسه العبودية . والجبرية ويبلغ منزلة الحرية والاختيار — وهى أعلى مراتب الكمال الوجودى.

واثبات الذات على هذا المعنى ليس من الأثرة أو العجب .

ليس عجيبا أن يشعر الإنسان بوجوده الذاتى وأن يشعر الناس به ، فيأبى على نفسه التابعية والفضولية والاستهان ، وأن يحس بأنه له ارادة يجب أن تملى فلا ينسلب منها . ذلك أولى أن يعد عبادة . قال معلم الناس الخير : «من عرف نفسه عرف ربه» .

وليس أثرة أن يكون الإنسان طلاعا للغايات البعيدة دراكا للأهداف السامية . ذلك من التعالى بالآدمية ، وهو تعال يرضى الله الذى يقول : «ولقد كرمنا بنى آدم ... إلى أن قال ... وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» .

على هذا لا يتنافى إثبات الذات مع فضيلة تأخير المصالح الذاتية عن مصلحة المجموع . إن الذين يتفانون فى خدمة المبادىء للانتقال بالجمعية البشرية إلى درجة أعلى من درجات الكمال لا يسمى تفانيهم إلغاء للذات . ذلك أقصى درجات المحافظة على الذات والتشريف لها . لأنه سبيل خلود الذات والنفس المتسلبة من شخصيتها لا يرجى منها خير لذاتها ، فضلا عن غيرها .

إثبات الذات احترام لوجودها وإيمان بواجب هذا الوجود واعتقاد بأن هذه الذات التى أوجدها الله وفتح لها أبواب الشرف وأثبت لها حقها فى التسامى وجعل أمرها فى ذلك بيدها لا يملك لها أحد نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع أحد رفعا لها أو خفضا — هذه الذات يجب أن تأخذ حقها من الكمال وتبلغ منزلتها من السمو .

ذلك فيه خير الفرد وخير الجماعة . فان الجماعة فرد مكرر . وإذا بلغ الفرد الكمال بلغت الجماعة الكمال .

هذه دعوة إقبال ، دعوة إلى الحياة والقوة والأمل والعمل ونبذ اليأس والمخاوف والخنوع . فهلا تدبر الشباب هذه الدعوة واستجابوا لها ، فقووا ذواتهم وسموا بمقاصدهم وأعلوا هممهم فاختاروا المعالى ، وعرفوا شرف الوجود ، فحصلوا على أفضل الموجود ، ولم يقفوا فى السبق إلى الغايات عند حد محدود .

إنهم إن يفعلوا هدوا إلى الخير وهدوا إلى صراط الحميد .

تحية لذكرى إقبال

للأستاذ أحمد حسن الزيات

فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل من عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف ابتسم إقبال للموت تلك الابتسامة التى جعلها علامة المؤمن فى آخر بيت قاله . ثم توارى بالغيب كما تتوارى الشمس بالحجاب بعد أن قبس العالم الإسلامى حرارة ستجدد له الحياة ، ونورا سيضىء له الطريق . وما كان إقبال إلا بضعة من طبيعة الهند المؤمنة نفخ فيها الإسلام من روحه فصفت صفاء الفطرة ، وخلصت خلوص الحق ، وسطعت سطوع الهدى ، ثم تبلورت فيها برهمية الهند الموروثة ومحمدية العرب المكسوبة ، فكان منهما فلسفة شعرية فريدة ، لا هى عدمية مترددة شاكية كفلسفة (المعرى) ، ولا هى وجودية ملحدة قاسية كفلسفة (نتشه) ، وإنما هى الإسلامية الموحدة المؤلفة السمحة كما أوحاها الله بروحيتها النابغة من القلب الشاعر بآلام الأرض، وماديتها الصادرة عن العقل بالهام السماء .

فهم إقبال الإسلام على حقيقته التى أنزلها الله ، وعلى طريقة التى سنها الرسول ، وعلى سياسته التى نفذها الصحابة . فهمه على أنه سعادة الحياتين بالإيمان الخالص ، وعمارة الدارين بالعمل الصالح ، وقوة المشرقين بالوحدة الشاملة . فدعا فى (أسرار خودى) إلى تقوية الذات

فى الفرد بالتقوى والحب ، وفى (صليل الجرس) إلى يقظة الوعى فى المجتمع بالثورة والجهاد ، وفى (رسالة المشرق) إلى توثيق الاخوة الإسلامية فى الشرق بالوحدة والتعاون .

ثم كان هذا الرجل المختار الذى نبت جسمه فى رياض كشمير ، وانبثق روحه من ضياء مكة ، وتألف غناؤه من الحان شيراز ، لسان لدين الله فى دنيا العجم ، يفسر القرآن بالحكمة ، ويصور الإيمان بالشعر ، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح ، وينفر من حضارة غربية عمادها الإنسان والمادة ، ثم يشيد بماضى الإسلام الذى حرر الرؤوس وطهر النفوس وأصلح الأرض ، ويندب حاضر المسلمين الذى مزق التراث المحمدى المهمل بين أقوام سخرهم الشيطان لإفساد الكون فسخروا العلم لاستغلال الطبيعة ، وسخروا الطبيعة لاستعباد الناس ، وهم الذين عناهم إقبال بقوله فى بعض شعره : «خلقت يا رب من النار إبليسا واحدا وخلقت من الطين ألف ألف إبليس» ! ثم يقطع الشعر حسرات على دين أحاله الجهل والضعف فى نفوس أهله شعائر من غير شعور ومناسك من غير نسك ، وينعى على المصلين الا تناهم الصلوات عن الفحشاء والمنكر ، وعلى المزكين ألا تطهرهم الزكوات من الأثرة والشح . ويقول لأولئك الألوف الذين يذهبون كل عام إلى الحجاز وهم لا يدركون سر الحج ولا معنى الجماعة فى بيت شعره الثائر الساخر : «أما يسأل أحد أولئك العائدين من حج بيت الله المحرم ، ألم يجدوا هناك ما يطرفوننا به غير قارورة من ماء زمزم» ؟

أما بعد : فاذا كان حسان شاعر الرسول ، فان إقبالا شاعر الرسالة. وإذا كان لحسان من نازعة شرف الدفاع عن محمد ، فليس لإقبال من

ينازعه شرف الدفاع عن المحمدية . وشتان بين من يمجد الداعى الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدعوة الكبرى عن عقيدة . وإذا كان فى الشعراء الصوفيين من عطر مجالس الذكر بفضائل الإسلام وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغ مبلغ إقبال فى فقه الشريعة وعلم الحقيقة ، والتأمل الفلسفى فى كتاب الله ، والنظر العلمى فى كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب فى قوة تمييز وسلامة فهم وصحة حكم .

عرفت إقبالا عن طريق فكرته وعلمه ، لا عن طريق لغته وفنه . والحكم على العالم الفيلسوف بما نقل من علمه وفكره جائز ، ولكن الحكم على الشاعر الفنان بما نقل من شعره وفنه مستحيل . وما علمناه من آراء إقبال فى الإسلام والمسلمين مجردة من إيحاء اللغة وسحر الأسلوب وحليته الصافية وإشعاع الروح يحله محل الزعيم المصلح ، فكيف إذا قرأناها فى صيغتها الأصلية علما فى فن ، وشعورا فى شعر ، وفكرة فى صورة ، وحقيقة فى مجاز ؟

إننا تذوقنا فن إقبال فى فن صديقه عزام بالقدر الذى تعطيه الصورة الشمسية من الصورة الطبيعية . فقد تلاقى الرجلان والفنانان فى ديوانى رسالة المشرق وضرب الكليم فكان من تلاقيهما المبارك الموفق وفد للأدب العربى يخصب عليه روضه وينضر به عوده . والمرجو أن تنقل نفحات إقبال كلها إلى لغة القرآن ، فانها لآياته المحكمة المفصلة بمثابة التفسير الملهم . ولقد انتقل شاعر الخلود إلى الخلود وفى نفسه أن يقرأه العرب كما يقرأه العجم . ومن الوفاء لذكراه أن نحقق له هذه الأمنية ، ومن البر بالعروبة أن نرفدها بهذه العبقرية ، ومن فضل الله على إقبال أن حقق له أكثر أمانيه : فها هى ذى باكستان كما أراد يلتئم

شملها وتجتمع قواها فتنهض فاذا هى معقد رجاء الإسلام ومهوى أفئدة العرب . وها هى ذى أمة القرآن كما تمنى يشرق صبحها من جديد ، فتستيقظ وتعى ، ثم تتآلف وتتعاطف ، ثم تتقارب وتتحد ، ثم تهب فى كل مكان ، فتثور على المستعمر ، وتتمرد على المستبد ، وتنبو عن القيد ، وتملك قيادتها رجال السيف ، وتولى أمورها أهل العمل ، وتريد أن تكون فى السياسة الدولية كتلة ثالثة يستقر بها النظام ويطمئن لها السلام ويصلح عليها الأمر .

وها هى ذى مبادىء الإسلام كما أحب تعود فتضىء جوانب النفوس الشابة فتكشف عنها ما ألقته حضارة الغرب وثقافته من ظلام اليأس والشك والحيرة ، ويهديها الطريق الذى نهجه الدين لصلاح الدنيا ، فتتآخى فى الله ، وتتواصى بالصبر ، وتتعاون على البر ، وتعتصم بالحق لأنه الملاذ ، وتتجه إلى الخير لأنه الغاية .

وهاهم أولاء العرب والعجم يعترفون بجميله ويجمعون على فضله .

إقبال

إقبال و أبوالعلاء المعرى للدكتور طه حسين

شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلامية إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبى الإسلامى على الزمان . أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب .

شاعران يتقاربان كأشد ما يكون التقارب ، ثم يتباعدان كأعظم ما يكون التباعد: كلاهما شاعر أولا وكلاهما فيلسوف وكلاهما أخضع الفلسفة للشعر ، وأخضع الشعر للفلسفة. وما أصعب التوفيق بين هذين الفنين الخطيرين . وكلاهما ، بعد ذلك ، خرج على ا لتصوف التقليدى المعروف ، واتخذ لنفسه سبيلا خاصا فى التصوف لا يكاد يشاركه فيه أحد غيره . وكلاهما أثبت شخصيته كأقوى ما يكون إثبات الشخصية ، ودعا الإنسان إلى إن يعرف نفسه حق معرفتها ، و إلى أن يفرض نفسه على الدنيا ، ويفرضها على الزمان ، ولا يفنيها فى أحد غيره مهما يكن . ولكنهما بعد ذلك يختلفان ويفترقان أشد الافتراق ، أحدهما — وهو أبو العلاء — كان فى أيامه ينظر إلى الهند ويطيل النظر إليها ، والأخذ عنها والتأثر بها ، حتى التزم فى حياته حياة المتنسكين من البراهمة .

والآخر — وهو إقبال — كان ينظر إلى العرب ويشيد بهم ، ويثنى عليهم، ويتخذهم المثل الأعلى للإنسانية الجديرة بالوجود والحياة والبقاء .

كلاهما آمن بشخصيته ، ودعا الناس إلى أن يؤمنوا بأنفسهم : ولكن أحدهما — وهو أبو العلاء — آمن بشخصيته إيمانا انتهى به إلى اليأس والسلب ، وانتهى به إلى اعتزال الناس ، وان أحبهم كما لم يحبهم أحد قبله .

والآخر آمن بنفسه والتمس مثله عند العرب ولم يلتمسه قريبا منه فى الهند. ثم لم يعتزل وإنما كره العزلة . ولم يرفض الحياة وطيباتها. وإنما أخذ منها بحظ معقول ، ولم يلغ غرائزه كما فعل أبو العلاء ، وإنما دبر وسيطر عليها وحكم عقله فيها .

وكذلك يتفق هذان الرجلان العظيمان أعظم الاتفاق وأقواه ، ثم يختلفان أبعد الاختلاف وأنهاه .

كان أبو العلاء لا يزدرى الناس كما ازدراهم إلا لفكرة واحدة . كان يزدريهم أشد الازدراء لأنهم يفنون أنفسهم فى السادة ، ويفنون أنفسهم للملوك والأمراء . وكان حريصا أشد الحرص على أن يشعر الناس بأنهم يجب أن يكونوا أكرم على أنفسهم من هذا ، ويجب أن يتوحدوا كما توحد ربهم :

توحد فان الله ربك واحد ولا ترغبن فى عشرة الرؤساء

كان أبو العلاء إذن يريد أن يشعر الناس بأنفسهم، ويعرفوا حقهم ويفرضوا شخصيتهم على الدنيا ، وأن يرفعوا أنفسهم عن الخضوع والغناء وكان يعيب الأمراء ويعيب الملوك ويراهم ظلمة مجرمين .

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ولكن هذا كله لم يهون على أبى العلاء أن يحيا مع الناس كما كانوا يحيون . رأى أن الحياة الاجتماعية فى عصره لا تستقيم له إلا إذا أنكر نفسه وأصبح خادما كغيره من هؤلاء الخدم الكثيرين الذين كانوا يسودون ويذلون فى الوقت نفسه للملوك والرؤساء فنفى نفسه من الأرض ولزم داره وأقام فيها لا يخرج منها خمسين عاما أو نحو خمسين عاما .

أما إقبال فانه آمن بشخصيته أشد الإيمان كما آمن بها أبو العلاء ولكنه لم يكتف بأن يؤمن بنفسه ، ثم يكتفى بهذا الإيمان قانعا بنفسه زاهدا فى إحياء هذه الشخصية فى الناس جميعا ، وإنما كان إيجابيا . كان حريصا أشد الحرص على أن يؤمن بنفسه ، وأن يحمل الناس على أن يؤمنوا به . أن يؤمن بشخصيته ويحمل الناس ، لا فى الباكستان والهند وحدهما ، ولا فى العالم الإسلامى وحده ، بل فى العالم الإنسانى كله . كان حريصا على أن تكون حياة الإنسان قائمة على ايمان الفرد بنفسه ، وعلى أن يفرض الفرد نفسه على الحياة ، لا أن يخضع لها . ويفنى فى هذا المظهر أو ذاك من مظاهرها . وكان فى الوقت نفسه منطقيا مع هذا الرأى الفلسفى الخطير . كان إجتماعيا كأشد ما يكون الإنسان إخلاصا للجماعة، أن أفنى حياته كلها مرشدا معلما ناصحا داعيا للعالم الإسلامى وللإنسان إلى أن يكرم على نفسه وليكرم على الناس وليكرم على الحياة . ولكنه فى الوقت نفسه كان يرى أن هذه الحياة التى يخلص الإنسان فيها للإنسان ، وينصح الإنسان فيها للإنسان ، ويعين الإنسان فيها الإنسان لا تستقيم ولا تصلح ولا تؤتى ثمرتها إلا إذا انفصل الإنسان عن الإنسان وآمن بأن له وجوده الفردى الخاص ،

وبأن هذا الخير الذى يذيعه فى الناس والذى يريد أن يملأ به الأرض يجب أن يصدر عنه هو من حيث أنه فرد مستقل كائن خاص ممتاز عن غيره ، يريد الخير ويصدره عن نفسه مريدا عامدا لا كما يصدر الضوء عن السراج دون أن تكون للسراج فيه إرادة ، بل كما يصدر الضوء والنور عن الله ، لأن الله يريد أن يملأ الأرض وأن يملأ العالم ضوءا ونورا .

والذى كان يريده إقبال للفرد كان يريد مثله للجماعات حين يتاح لها أن تأتلف وأن توحد بينها هذه المقومات التى تكون منها أمة مشتركة المنافع مشتركة الآمال والغايات والآلام والحاجات .

وهو من أجلها لم يدع إلى شىء كما دعا إلى أن يكون المسلمون فى هذه القارة التى نسميها قارة الهند ، لم يكن يدعو إلى شىء كما كان يدعو إلى أن يمتاز المسلمون ما دامت بينهم هذه الخصائص التى تجمع، ولهم هذه الآمال وهذه الآلام وهذه الغايات العليا التى يشتركون فيها جميعا وتخالط قلوبهم وضمائرهم جميعا . فيجب أن يمتازوا وأن يكون لهم وجودهم السياسى والاجتماعى الخاص وأن يصدروا فيما يكون غيرهم من الناس جميعا ، عن ارادة للخير وارادة للنصح وارادة للتعاون والتضامن فى ترقية الحضارة ونفع الإنسان والخروج به من هذه الحياة الشريرة المظلمة التى يحياها إلى حياة أخرى خير منها .

كان إذن حريصا على أن يتوحد الفرد فى وجوده وعلى أن تتوحد الأمة فى وجودها ، وعلى أن يكون هذا التوحيد وسيلة إلى التضامن الذى يصدر عن الإرادة ولا يصدر عن الغريزة ، يصدر عن القلب وعن العقل وعن التفكير ، بحيث يكون الإنسان ــ كما قال أرسطاليس ــ حيوانا

إجتماعيا ولكن حيوانا إجتماعيا فى إرادته وعن رأيه وعقله ، لا بغريزته كما تكون النمل . فالإنسان هو خير ما فى هذه الأرض من الكائنات التى أتيحت لها الحياة فيجب أن يمتاز فى الأرض ويجب أن يمتاز أفراده ، وأن تمتاز أممه ، وأن يتحقق بين الناس هذا الامتياز الذى يتيح لكل فرد منها استقلاله ، وهذا التضامن الذى يتيح لهم جميعا أن يتعاونوا على البر والتقوى وأن لا يتعاونوا على الإثم والعدوان .

ومن أجل هذا ، ومن أجل حرص إقبال على هذه الشخصية ، وعلى أن يحرص الإنسان أشد الحرص على أن يتوحد كما توحد الله ، وعلى أن يمتاز كما امتاز الله ، وعلى أن يسود الأرض التى سخرها الله له ، ويخضع الطبيعة التى سخرها الله له ، من أجل هذا كله ظن بعض الأوربيين الذين قرأوا فلسفة إقبال وشعره عندما ترجمه نيكلسون إلى الإنجليزية ، ظنوا أنه متأثر بنتشه ، ومتأثر بنتشه فى مذهبه فى الإنسان الممتاز أو « السوبرمان ». ولكن إقبال نفسه رد على هؤلاء الناس فقال إنه عندما جهر بمذاهبه هذه لم يكن يعرف نتشه ، ولم يكن يعرف أن فى الأرض إنسانا يسمى بهذا الاسم ، وأنه إنما عرف الغرب وفلاسفة الغرب بآخرة بعد أن أنشأ فلسفته وآدابه وبعد أن تقدم بهذه الفلسفته بهذا الأدب شوطا بعيدا .

ومهما يكن من شىء فهذان الشاعران العظيمان لم يعرف الإسلام مثلهما قبل أبى العلاء ، ونرجو أن يعرف الإسلام مثلهما بعد إقبال . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن الإسلام لم يعرف مثل هذين الشاعرين لا قبل أبى العلاء ولا بين أبى العلاء وبين إقبال .

إحتاج المسلمون إلى نحو عشرة قرون ليوجد بينهم ثان لأبى العلاء ،

ولكن إقبال كان أحسن حظا من صاحبه . فهو قد عاش فى عصر غير العصر الذى عاش فيه صاحبه . عاش أبو العلاء فى عصر كان المسلمون قد أخذوا يضعفون و ينحطون فيه ، وأخذ العنصر الأعجمى والعنصر التركى بنوع خاص يتسلط فيه على المسلمين . وأخذت أوروبا تتحفز لغزو الشرق فى غزواتها الصليبية المعروفة ، فكان ساخطا على الحياة مهيبا بالمسلمين أن يغيروا من أمر أنفسهم ليغير الله من أمرهم .

وعاش إقبال فى عصر آخر ، عصر كان المسلمون فيه ، كما نراهم الآن ، متفرقين ومن حقهم أن يأتلفوا ، ضعافا ومن حقهم أن يقووا ، وفى الوقت نفسه فيهم استعداد وتحفز للنهضة والقوة والحياة والتضامن، ولكن لهم أعداء خطيرين يدبرون لهم الكيد ويضمرون لهم المكروه ، وهم هؤلاء المستعمرون فى الغرب . فالعصران يتشابهان من جهة ويختلفان أشد الاختلاف من جهة أخرى . فلم يعرف أبو العلاء هذا العلم الكثير الذى أتيح لإقبال أن يعرفه ولم يعرف هذه الفلسفة الكثيرة التى أتيح لإقبال أن يعرفها . ولم يعرف هذه الحضارة المادية الهائلة التى استطاع إقبال أن يعرفها ، وأن يقبل منها أقلها ويرفض أكثرها .

ودعوة الرجلين واحدة . كلاهما يدعو العالم الإسلامى أولا والإنسان ثانيا ألى إن يعرف نفسه وحقه ويفرضهما فرضا ، ولا يفنى فى أحد مهما يكن ، ولا يفنى حتى فى الله نفسه .

وأشد ما ينكره إقبال ، وأشد ما ينكره أبو العلاء على المتصوفة فكرة الفناء هذه . فأبو العلاء ناقش المتصوفة أشد المناقشة . ولم يكره من مذهبهم شيئا كما كره منهم هذا الفناء فى الذات الإلهية الذى

يقولـون به . كما كـره منهم العبث بعقول النـاس . وإقبـال متصوف متقشف مدرك للفلسفة العليا وللمثل العليا فى أروع صورها وأجملهـا . ولـكنه لا يريد مطلقا أن يفنى فى هذا النـور الإلهى الخطير العظيم ، بل يجب أن يحتفظ بشخصيته وأن ينظر إلى هذا النور ويطالعه ويخاطب ربه خطـاب العـالم به المريد أن يخـاطبه وأن يسمع منه ، لا لأن يفنى فيه وينكر وجوده وينكر نفسه ويصبح ضائعا فى هذه القوة الإلهية العليا . لا يريد إقبـال أن يضيع ، ولا يريد لأحد من النـاس أن يضيع ، ولا يريـد للإنسان أن يفنى فى الإنسان ، ولا أن يفنى فى الله . إنمـا يريد للإنسان أن يعين الإنسان ، وأن يتضـامن معه على الخير ، وأن يعبد الله عالما به مكبرا له ، ولـكن معترفا بنفسه ومؤمنا بهـا . ذلك لأن الله عندما أمر الناس بعبادته لم يأمرهم بأن يفنوا أنفسهم فيه ، وإنما أمرهم بـأن يعيشوا أحراراً مؤمنين بشخصيتهم مستقـلين . ولولا هذا لما كلفهم هذه التـكاليف التى فرضهـا عليهم . فان الله لم يـكن ليـكلف نفسا أن يصلى ويصوم ويؤدى الزكاة ويحج إلى آخر هذه التكاليف التى فرضهـا على الإنسـان . فنفس هذه التكالـيف التى فرضت على الإنسان إنمـا فرضت عليه ليـكون فردا مستقلا ثـابتـا أمـام ربه ، يعبده ارادة لهـذه العبادة ، ويذعن له عن ارادة لهذا الإذعان .

والغريب أن الرجلين اشتركا أيضا فى هذا التفكير المتصل بالملأ الأعلى . وكلاهمـا فكر فى هذه المعجزة التى جـاءت فى القرآن ، وهى معجزة الإسراء . فكر هذا كلاهما ، وحاول كلاهما أن يسرى كما أسرى بالنبى :

فأبو العلاء فكر فى الجنة وفكر فى النار وحرص على أن يسيح فى

الجنة والنار ، وأن يكون متفرجا ، وأن يتحدث إلى الناس عن الجنة والنار ، وعما يكون فى الجنة والنار ، فألف « رسالة الغفران » .

وصاحبنا الذى نذكره اليوم مكبرين له مجلين أبى هو أيضا إلا أن يعرج فى السماء كما عرج محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن كلا الرجلين عرجا إلى السماء فى خيالهما . و إقبال يزور السموات ويتخذ له من هذه الزيارة دليلا من المتصوفة هو جلال الدين الرومى ، فيزور القمر ويزور المريخ ويزور كواكب كثيرة ، صاحبه هذا يدله كما كان « دانتى » فى القرون الوسطى يطوف بالجنة والنار والأعراف ومعه الشاعر اللاتينى القديم «فرجيل » يهديه فى هذا التطواف . كذلك فعل إقبال . وأكبر الظن أنه لم يعرف دانتى إلا فى العصر الأخير من حياته .

مهما يكن من شىء فقد طوف اقبال فى السموات كما طوف فيها أبو العلاء . ولكن النتيجة لهاتين الزيارتين متناقضة عند الرجلين أعظم التناقض . فأما أبو العلاء فعاد من زيارته للجنان والنار ساخرا منكرا يوشك أن يخرج على الدين . وأما إقبال فعاد من زيارته مؤمنا متعظا معتبرا يريد أن يملأ الدنيا موعظة وعبرة بعد هذه الزيارة إلى هذه السموات .

أفنى الأستاذ الصديق عبدالوهاب عزام وقتا كبيرا وبذل جهدا عظيما وقدم إلينا حياة إقبال وطائفة من شعر إقبال . وهو ماض فى ترجمة ما بقى من شعره . فنحن مدينون له بكل ما نعرفه عن إقبال باللغة العربية ، وسيزداد هذا الدين شيئا فشيئا كلما أضاف إلى تراجمه التى بين أيدينا ترجمة أخرى . وأحب أن نكون أوفياء وأن نكون كراما

على أنفسنا . وأول حقوق الكرامة هو أن نعرف الحق لأهله ، وأن نذكر إقبال أداء لما له علينا جميعا من دين . فهو الذى دعانا إلى الخير وأشاع فينا هذا الأمر بأن نعرف أنفسنا وحقوقنا ونجاهد فى سبيل الحق والخير والجمال .

وإذا ذكرنا إقبال وأكبرناه و تمنينا أن تنفع كلماته هذه الخالدة ، وأن يصبح المسلمون جميعا متأثرين بهذه المذاهب العليا ، إذا ذكرنا اليوم إقبال وأكبرناه فأظن من أيسر الحق علينا أن نذكر ونشكر الأستاذ عبد الوهاب عزام ، فهو الذى كان صلة بيننا وبين إقبال .

اقبال الفيلسوف

للاستاذ فتحى رضوان

أسندت إلى رئاسة هذا الاجتماع[1] وكان ذلك تكريما لى وإحراجا فى الوقت نفسه . أما التكريم أو التشريف فمفهوم . أما الإحراج فأمره ظاهر ، إذ يشترك فى هذا الاجتماع اثنان ممن تشرفت بالتلمذ عليهم، أستاذى السيد مدير الجامعة الدكتور كامل مرسى تلقيت عليه العلم مباشرة أربع سنوات متعاقبات ، ثم واصلت الاتصال به عن طريق كتبه، وعن طريق أحكامه ، يوم أن كان فى محكمة النقض والإبرام . ثم تلمذت مباشرة أيضا وبغير وساطة الكتب على أستاذنا الدكتور طه حسين . ولعل الجيل الجديد لا يعرف أن الدكتور طه حسين نجح فى إقناع ذوى الرأى فى ذلك الحين فى أن يعلموا طلبة كلية الحقوق سنة فى كلية الآداب ليحصلوا فيها الآداب العربية والآداب الأجنبية واللاتينية أيضا .

وقد أحببنا هذه السنة حبا جما لأنها أتاحت لنا أن نرى عن كثب الدكتور طه حسين الذى كنا نسمع عنه كثيرا قبل أن نحضر من بلادنا فى الريف إلى القاهرة ، وأن نرى زملاءه الذين كانوا كرجال عاهدوا الله ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ،

(١) الذى عقد بجامعة القاهرة بمناسبة ذكرى إقبال .

منهم المرحوم الأستاذ أحمد أمين والدكتور منصور فهمى وغيرهما من أعلام الفكر والرأى فى ذلك الحين وفى كل حين باذن الله .

ولذلك فقد ترددت كثيرا فى أن أقبل رئاسة هذا الاجتماع ، لأنى وجدت أنه من غير المنطقى أن أكون رئيسا له فى الوقت الذى يحضر فيه هذان العالمان الكبيران ليتكلما . ولكننى أعلم أن الأستاذ الكبير كما يسره أن يخرج الكتاب النافع المفيد فينتشر ويروج ، يسره أيضا أن يرى تلاميذه وأبناءه يتكلمون فى حضوره ، ويشهد محاولتهم فى أن يقلدوه وأن ينقلوا إلى الناس صورة عنه فى أشخاصهم . ولهذا السبب سمعت لنفسى أن أتكلم وأن أحضر كرئيس لهذا الاجتماع ، راجيا من أستاذى أن يغفر إلى ما قد أتورط فيه من خطأ كبير أو صغير .

محمد إقبال . . نحن نجتمع اليوم لنكرمه . وفى الواقع نحن إذ نكرمه إنما نكرم أنفسنا . فمحمد إقبال رمز لأحسن ما فى الحياة الإنسانية . هو يمثل الشعر ويمثل الفلسفة ويمثل القانون أيضا . فقد كان أستاذا فى الجامعات ، وكان شاعرا له دواوين بلغت من العدد تسعا ، وهو أيضا محام بالمحاكم يترافع فى القضايا .

والقانون والشعر والفلسفة إلى جانب الإيمان بالمثل العليا والمعانى الباقية فى الحياة الإنسانية ، هو أجمل وأكبر ما فى هذه الحياة . فاذا ربطنا أنفسنا بهذه المعانى ، وقلنا إننا نقدرها حق قدرها ونحبها ونتذوقها ونحب الذين أضافوا فى ميدانها شيئا ، فنحن نكرم فى الواقع أنفسنا ، ونضع أنفسنا فى خير مكان يضع الإنسان فيه نفسه فى هذه الدنيا .

وقد عرفت محمد إقبال معرفة شخصية . عرفته فى القاهرة فى سنة ١٩٣٢ وكان فى طريقه إلى مؤتمر الدائرة المستديرة فى لندن .

وكنت إذ ذاك مشغولا بفكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين التى سبقت فى ميلادها ميلاد الجامعة العربية . وكنت إذ ذاك شيئا غريبا بين الطلاب، لأن فى ذلك الحين كان الشباب ، و شباب الجامعة بصفة خاصة ، لا يفكرون فى غير مصر . وكانت العقيدة السائدة أن مصر تستطيع أن أن تعيش وحدها ، بل أن مصر يجب أن تعيش وحدها، لأنها لا تفيد شيئا من هذه البلاد التى تسمى الآن بالبلاد العربية ، والتى كنا لا نعرف لها اسما عاما نطلقه عليها .

واهتمامى بفكرة الطلبة الشرقيين هى التى سوغت لى وحسنت أن ألقى الدكتور محمد إقبال فى محطة القاهرة وأن أركب معه العربة (الحنطور) التى ركبها من محطة القاهرة إلى فندق « ناسيونال » . ولعلكم تعرفون مدى حرجى حينما وجدته منصتا إلى متهيئا لأن يسمع . وبحثت إذ ذاك عن عبارات باللغة الإنجليزية أقولها فلم أجد شيئا . وقد أنقذنى فى ذلك الحين صحفى كان يقيم فى القاهرة يعرف الإنجليزية ويعرف بعض العربية ، فنقل إلى الدكتور إقبال أننى أدعو إلى مؤتمر الطلبه الشرقين . فطاب له أن يرى داعيا لا يجد له لسانا . ولما وصلنا إلى الفندق جلسنا وقد ذهب عنى روع المقابلة . واستطعت عن طريق المترجم بطبيعة الحال أن أحدث إقبال عن الأحلام التى تساورنى وعن الخواطر التى تشغل بالى ، فوجدت فيه أول صورة من صور عظمية ، وهى صورة التواضع التى تعرف أن البداية دائما صغيرة ، وأن الحالمين هم دائما طليعة العالمين الذين يبدأون فى تردد وحياء قد تثبت قدمهم ، ثم يتضح طريقهم ، ثم قد يصلون إلى آخر الهدف ، إن لم تزر قلوبهم و إن لم يفقدوا إيمانهم .

كان إقبال فى هذا اليوم صورة غامضة أخذت بمجامع فؤادى واستولت على لبى . وقد سمعته فى المساء فى جمعية الشبان المسلمين يتحدث عن مجمل فلسفته ويتخذ من الإسراء وسورة الإسراء سبيلا إلى شرح هذه الفلسفة . وقد يكون من الشاق عليكم وقد استنفدت مقدمتى هذه فى هذا اليوم أكثر الوقت الذى خصص لى ، قد يكون من الشاق على وعليكم أن أحاول إجمال فلسفته فى كلمات أو فى دقائق . ولكن حسبى أن أقول إن إقبال قال ذلك اليوم أنه يفهم من سورة الإسراء غير ما يفهمه أكثر المفسرين والشارحين . إنه يفهم من هذه السورة بيانا من القرآن وتأكيدا لهذه العلاقة التى تربط هولاء الآدميين الذين يدبون على هذه الأرض بأهل السماء وبمن فى السماء وبما تمثله السماء من مثل عليا : من طموح روحى ومن استشراف إلى هذه المعانى التى تشغل الناس دائما وهى غامضة غير مفهومة ، ثم تتضح لهم بعد ذلك .

ولقد كنت فى هذا الصباح أطالع فى ترجمة حياة الدكتور محمد إقبال فوجدت هذه الأبيات تكاد تكون كرجع الصدى لهذه المحاضرة التى سمعتها من الدكتور إقبال نفسه . وهذه الأبيات تصف المسلم فتقول عنه :

يبتسم المسلم فى سلمه ... عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ فى عزمه ... إذا دعا الحرب ونادى النفير
يمشى على الأشواك والنا ... روالسيف ويمضى ساخراً بالعذاب
فهو ترابى ولكنه ... حر طليق من قيود التراب

هذه المحنة الإنسانية الأبدية ، كون الإنسان ترابيا، وكون الإنسان راغبا فى أن يتحرر من التراب ، هذه هى خلاصة فلسفة إقبال فى كلمات يحاول أن يتقدم بها إليكم غير فيلسوف .

هو يريد منا أن نكابد الحياة لا أن نفر منها ، وأن نفهم أنها جهاد متصل ، وأن الإسلام لا يدعو الناس أبدا لأن يستسلموا ، ولا لأن ينفضوا أيديهم من هذه الدنيا بما فيها من متع ولذائذ . حتى متع البدن ولذائذه. فالحياة جملة لا تنفصل، وإنما القوى المؤمن الخلاق هو الذى يستطيع أن يخلق من هذه الحياة على مافيها من تناقض باد للإنسان شيئا جميلا وأن يجعلها وسيلة متجددة للخلق والابتكار والإضافة .

هذه هى المعانى الكلية فى فلسفة إقبال ، يشرحها أيضا فى هذه الأبيات :

إذا ما شئت أن تحظى بسر ... تبوح به الحياة لمستجيب
فلا تبعد بنفسك عن لظاها ... كما جفل الشرار عن اللهيب
ولا تصحب سوى نظر عريف ... ولا تمرر بأرضك كالغريب

ولذلك فان صوت إقبال جدير بأن يكون اليوم حبيبا إلى أسماعنا وإلى قلوبنا . فأهل الشرق جميعا ، وأهل هذه المنطقة من العالم على وجه الخصوص ، مدعوون لأن يكابدوا الحياة ، وأن يكابدوا لهيبها ، وألا يفروا منها ، وأن يحتملوا تكاليفها ، وأن يؤدوا ضرائبها ، وأن يؤمنوا بها ، ليستطيعوا أن يكونوا خلاقين مبتكرين وأن يضيفوا إلى هذا التراث العربى ، وإلى هذا التراث الإسلامى ، وإلى هذا التراث الإنسانى ، ثروات جديدة على عهد أجدادهم وأسلوب هؤلاء الأجداد فى الخلق والبناء والقيادة .

ذكرى محمد إقبال

للدكتور سليمان حزين

فى مثل هـذا اليوم من ثمـانية عشر عاما انتقل إلى الـرفيق الأعلى شاعر وفيلسوف من شعراء الإسلام وفلاسفته هو المرحوم محمد إقبال . ونحن إذ نحيي ذكـراه الليلة إنما نحيي ذكـرى مفكر من أعظم مفـكرى الإنسانية فى عهدها الحديث ، ونحيي ذكرى زعيم روحى كان له الفضل ، أول الفضل ، فى بعث فـكرة الدولة الإسلامية فى الهند ، ووضع الأساس الأول للصرح الذى قامت عليه دولة الباكستان بعد أقل من عشر سنين من وفاة صاحب فـكرتها الأولى .

وفـكرة باكستان ، قـد سبقت تحقيقها مرحلة من الفكر والفلسفة السياسية لدى نفر من مفكرى الهنـد ، وعلى رأسهم هذا الشاعر والمفكر محمد إقبال . ونحن لن نستطيع أن نتفهم مكانة هذا الفيلسوف والـزعيم الذى جمع بين الريادة الروحية والقيادة السياسية جميعا ، إلا إذا رجعنا إلى الـوراء قليلا حين بـدأت نهضة العالم الإسلامى فى أواخـر القرن الماضى وأوائـل هـذا القـرن ، وظهر بـين المسلمين عدد من المفكرين والفلاسفة فى ميدان البعث الروحى والسياسى ، ومن هؤلاء أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى العالم الإسلامى فى الشرق القـريب ،

وأمثال إقبال فى العالم الإسلامى الهندى . وبدأ محمد إقبال حياته كواحد من أبناء الشعب الإسلامى فى الهند . وانحدر من أسرة أصلها من بلاد كشمير ، ولكنها انتقلت لتعيش فى بعض سهول الهند الشمالية ، وكان من حسن الحظ أنه رغم ما حصل من قسط طيب فى التعليم لم يستطع أن يدخل فى خدمة الحكومة ، لأن نظم التوظف فى العهد الإستعمارى حالت دون ذلك ، إذ كان إقبال ، على رغم بصيرته النافذة ، ضعيف الأبصار فى عينيه ، فلم ينجح فيما يسمونه الكشف الطبى للتوظف فى الحكومة ، ولذلك بقى بعيدا عن مجال الخدمة الحكومية بقيودها الكثيرة ، واستطاع أن يفرغ لما خلق له ، فعاش مفكرا حرا ، وعاش فيلسوفا يبحث عن الحقيقة كما يجد فى طلب الحق ، واستطاع أن يبين عما أودع الله نفسه وعقله وضميره من قوة هائلة انطلقت فبعثت فى سماء الهند بين المسلمين نورا تلألأ فى الفضاء ، ففتحت عليه أعين المسلمين رويدا رويدا ، ورأت فى ضوئه قبلة البعث ، وسارت فى طريقها لا تلوى على شىء ، حتى تحقق للمسلمين فى تلك البلاد ما كانوا يصبون إليه من قيام دولتهم الإسلامية «باكستان» .

والذى يرجع إلى التاريخ الروحى والاجتماعى لبلاد الهند العظيمة لا يلبث أن تبهره الحقيقة الكبرى . وهى أن الهند فى تاريخها القديم سارت على أساس النظام الطبقى ، الذى انقسم المجتمع فيه إلى طبقات أفقية يعلو بعضها بعضا . فلما دخل الإسلام إلى الهند انقسم المجتمع الهندى ، كما يقول مؤرخ الهند العظيم الأستاذ بانيكار ، الذى كان يشغل منصب سفير الهند بالقاهرة حتى عهد قريب ، والذى ألف كتابا رائعا فى تاريخ الهند القومى والاجتماعى ... انقسم المجتمع الهندى بدخول الإسلام قسمين كبيرين فى اتجاه رأسى يقوم من أسفل إلى أعلى . فأصبح

هناك بالهند مجتمعان متعاصران هما المجتمع الهندوكى بنظامه الطبقى المعروف ، والمجتمع الإسلامى الذى يتميز بكل ما فى المجتمع الاسلامى من صفات معروفة تحكمها شريعة الإسلام . وعلى هذا النحو انقسمت الهند كما يقول المؤرخ بانيكار بحق ، مجتمعين يقوم كل منهما على انفراد ، بل أمتين سعت كل منهما إلى أن تبلور حياتها القومية على نمطها الخاص .

ولقد كان محمد إقبال واحدا من تلك العمد الكبرى التى قام من حولها بناء المجتمع الإسلامى فى الهند خلال الثلاثين سنة الأولى من هذا القرن . وبدأت رسالة إقبال تظهر وتتبلور فى صورتها الواضحة القوية حين أصدر أثناء الحرب العالمية الأولى ديوانا يقوم الشعر فيه على فلسفة القوة ، وبعث بذلك فى نفوس المسلمين من الهنود رغبة ملحة فى أن يستعيدوا مجدهم الفائت وقوتهم الضائعة . ودفعهم إلى أن يؤمنوا بأنه لا سبيل إلى تحقيق الأحلام إلا إذا استيقظ النائم ، وسعى القائم ، وخرج الناس من حيز الفكر والتواكل إلى حيز العمل والتساند . وكان هذا الديوان بمثابة نقطة الانطلاق بالنسبة للفكر الإسلامى فى الهند من جهة وبالنسبة للحركة السياسية التى تمثلت فى الرابطة الإسلامية وبرنامجها المحدود لإنشاء دولة باكستان من جهة أخرى . ولئن كان محمد إقبال قد نشأ فى ميدان الشعر والفكر والفلسفة ، فانه قد نحا بآرائه منحى الواقعية والدعوة إلى العمل والجهاد ، فشارك مشاركة فعالة مع مجموعة من ساسة المسلمين فى الهند من أمثال رحمت على ومحمد على جناح ، حتى اتضحت سبيل الجهاد السياسى أمام المسلمين فى الهند ، وساروا فى سبيلهم حتى خرجت فكرة الباكستان إلى حيز الوجود والواقع فى عام ١٩٤٧ .

ولئن كان محمد إقبال قد انتقل إلى جوار ربه قبل أن يرى هذا الصرح القومى ، وقبل أن يرى هذا الحلم الذى تصوره بفكره ، وجلا معالمه ، ودعا إلى تحقيقه بكل ما يملك من بيان الشعر وسحر الفلسفة . إذا كان إقبال قد مات قبل أن يرى دعوته تتحقق فى صورة الدولة الجديدة ، فإن المسلمين فى بلاد باكستان، سواء فى ذلك قادتهم أم جمهرة شعبهم، ليذكرون دائما أن إقبال هو الأب الروحى الأول لفكرة باكستان .

وإننا إذ نشارك إخواننا المسلمين فى باكستان فى إحياء ذكرى هذا الشاعر والفيلسوف العظيم ، لنجد فى هذه الذكرى صورة من صور النهضة الروحية الكبرى فى العالم الاسلامى جميعا . ونحن وإن كنا لا نستطيع فى مثل هذا الحديث القصير أن نفى مثل هذه الذكرى حقها من التأمل وإمعان النظر ، فاننا مع ذلك نستطيع أن نبلغ بعض ما نريد اذا ما تأملنا جانبا مما نشر لهذا الفيلسوف فى اللغة العربية . إذ أن أغلب ما كتبه قد جاء باللغة الأردية الشائعة فى العالم الهندى الإسلامى . أو جاء فى اللغة الفارسية أو اللغة الانجليزية . ولكن من حسن الحظ أن كتابا من خيرة ما خلفه هذا الشاعر الإسلامى قد نقل أخيرا إلى اللغة العربية هو كتاب «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» وقد نقله إلى العربية المرحوم الأستاذ عباس محمود ونشرته أخيرا إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم ، وقد انطوى هذا الكتاب على إبراز لفلسفة محمد إقبال التى تقوم أساسا على بعث الفكر الإسلامى الأصيل ، وعلى الاستمساك بكل ما فى الإسلام من إصالة يجد فيها المسلم سبيله إلى استعادة الثقة بنفسه والإيمان بوجوده الروحى . كما يقوم هذا الكتاب أيضا على أساس بعث الهداية الروحانية التى تتسم فى الإسلام دائما بطابع التماسك الاجتماعى . ويضرب محمد إقبال فى كتابه أمثلة كثيرة توضح هذه

الفكرة . من بينها مثال صلاة الجماعة التى يرى فيها مظهر رائعا من مظاهر الترابط بين المسلمين . وهو يقول «إننا إذا انتقلنا من صلاة الجماعة كل يوم إلى الصلاة الجامعة من يوم الجمعة ، ثم إلى الحفل السنوى حول المسجد الحرام فى مكة فاننا لا نابث أن ندرك فى سهولة ويسر كيف تفسح مناسك الإسلام مجال الاجتماع الإنسانى» .

ويقوم هذا الكتاب أيضا على ابراز ناحية أخرى من نواحى الفكر الذى جاء به الإسلام ودعاء إليه بين الناس . ذلك أن الاسلام كما يقول هذا الشاعر الفيلسوف قد دعا إلى أن ينهض الفرد بذاتيته الإنسانية وإلى أن يسعى إلى تحقيق كمال فرديته سواء فى ميدان الروح والضمير أم فى ميدان الفكر والعقل . وتمثلت هذه الدعوة الإسلامية فى أروع صورها حين جاء نبى الإسلام بشرا من الناس ، وحين بلغت النبوة فى الإسلام كما لها بانتهاء النبوة بعد محمد عليه الصلاة والسلام . وهو أمر ، كما يقول إقبال ، ينطوى على مغزى عميق هو استحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه ، إذ أن الإنسان لن يستطيع أن يحصل كمال معرفته لنفسه إلا إذا اعتمد فى النهاية على عقله وروحه ليستجلى حقيقة الوجود الإلهى . وإن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام ، وإصراره على النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأولين ... كل أولئك ، كما يقول إقبال ، صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة بعد خاتم المرسلين .

رسالة محمد إقبال

للدكتور عثمان أمين
استاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقا

الدكتور محمد إقبال شخصية جذابة ، لها على القراء سحر عجيب . ولعل مرجع ذلك إلى أنه يغوص فى المعانى الفلسفية العميقة ، فيحسن تناولها وسبكها ، ويجليها للناس ببيانه الألمعى وشعره الناصع وتشبيهه الرائع ، ويجعل كتبه ، على غزارة مادتها وعمق موضوعاتها ، روضة غناء تسر الناظرين .

ومحمد إقبال علم من أعلام الإسلام ، وقائد من قادة الفكر فى الشرق ، ورائد من رواد الإصلاح فى هذا العصر . ونستطيع أن نقول إنه إلى جانب شخصية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده المصرى وعبدالرحمن الكواكبى السورى ، ستظل شخصية محمد إقبال من أبرز شخصيات التاريخ الإسلامى الحديث .

كان إقبال من أكثر مفكرى المسلمين إحاطة ، ومن أشدهم ابتكارا فى الوقت نفسه . كان واسع المعرفة بمذاهب الفاسفة الإسلامية والفلسفة الغربية ، كما كان على دراية بالمبادىء الأساسية فى العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغتها عبقريته مذهبا ضافيا جمع فيه بين العلم والفن والدين ، وفيه نفحات من التصرف

الإسلامى على العموم ، ومن خطرات «جلال الدين الرومى» على الخصوص ، ومن نظرية «نتشه» فى «الإنسان الكامل» ، ونظرية «برجسون» فى المعرفة الحدسية ، أى المعرفة عن طريق القلب .

ولمحمد إقبال فوق هذا فلسفة خاصة نجد فيها قبسات من مذهب الفيلسوف الأخلاقى «كانت» ومنها نزوع إلى العمل وتغليب له على جوانب النظر الخالص . ويبدو أن ما حاوله إقبال فى تاريخ الفكر الإسلامى شبيه من بعض الوجوه بما حاوله «كانت» فى الفكر الغربى . وقد عبر الشاعر الفيلسوف عن أرائه فى طائفة من القصائد نظمها باللغة الفارسية واللغة الأوردية ، فاستجابت لها الشبيبة المسلمة ، ثم بسطها بعد ذلك فى سلسلة من المحاضرات ألقاها باللغة الإنجليزية سنة ١٩٢٨ ونشرها سنة ١٩٣٤ بعنوان «تجديد بناء الفكر الدينى فى الإسلام» .

إن فلسفة إقبال ذات طابع دينى عميق ، وهى فى جوهرها تمجيد للإسلام وبعث للحياة والقوة فى المسلمين ، وتبشير لهم بمستقبل مجد وفخار إذا ساروا فى حياتهم على هدى دينهم .

ولا ينفك إقبال متغنيا بمآثر الإسلام ، وفى غنائه دعوة إلى النهوض والتشمير وحث للخطى على متابعة السير مع القافلة . ولنستمع إليه يقول : «الغاية القصوى للنشاط الإنسانى هى حياة مجيدة فتية مبتهجة . وكل فن إنسانى يجب أن يخضع تعلك الغاية . وقيمة كل شىء يجب أن تحدد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازدهارها . وأعلى فن هو ذلك الذى يوقظ قوة الإرادة النائمة فينا ، ويستحثنا على مواجهة الحياة فى رجولة . وكل ما يجلب إلينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا إنما هى رسالة انحلال وموت» ..

وهذه النغمة تذكرنا بنغمات «نتشه» صاحب كتاب «ارادة القوة» وبهذا المعنى يتغنى إقبال بعزيمة المسلم فيقول :

يبتسم المسلم فى سلمه عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصره الفولاذ فى عزمه إذا دعا الحرب ونادى النفير
يمشى على الأشواك والنار والس يف ويمضى ساخراً بالعذاب
فهو ترابى ولكنه حر طليق من قيود التراب

ويعبر عن قوة الإيمان فى «شعار المؤمن» فيقول :

لم أحن رأسى خاشعا إلا لمن
بيمينه الإحياء والإفناء
فقرى لخلاقى غنى عن خلقه
فأنا الغنى وإن غدوت فقيرا
وأرى فناء العيش خيراً للفتى
من أن يعيش على الغناء أسيرا

رأى إقبال أن الرجل الأوربى الحديث قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلى الصرف ، فلم يعد يعيش بروحه ، وأصبح لا يكاد يحس حياة الباطن : فهو فى مجال الفكر يعيش فى نزاع مع غيره ، وهو يجد نفسه فى أغلب الأحيان عاجزا عن ضبط أنانيته وشهواته وتكالبه على المادة تكالبا لا يعقبه إلا الحسرة والشقاء . وقد «كانت الحرب العظمى التى قامت فى أوروبا قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وإن الفطرة لتخلق اليوم فى أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنسانا جديدا ، وتخلق عالما جديدا لإقامة هذا الإنسان ، عالما يرى

هيكله غير البين فى مؤلفات اينشتين وبرجسون .. لقد رأت أوروبا بعينيها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية .. ولكن واأسفاه لم يستطع عباد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذى كان يثور فى الضمير الإنسانى» .

فاذا نظرنا إلى الشرق ، ولا سيما الشرق الإسلامى ، وجدناه يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . «لكن يجب على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل فى أعماقها ، وأن عالما جديدا لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبله . هذا قانون الفطرة الثابت الذى بينه القرآن فى كلمات يسيرة وبليغة : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» إنه قانون يجمع جانبى الحياة كليهما الفردى والاجتماعى . وأنه لجدير بالإكبار كل مسعى فى العالم ، ولا سيما فى الشرق ، يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرة إنسانية صحيحة» .

ولقد كان إقبال شديد الإيمان بأن للدين الأهمية العظمى والأثر الفعال فى توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء . وكان يرى أن الدين الإسلامى «دين مفتوح» إذا صح أن نستعير هنا عبارة «هنرى برجسون» فى كتابه «منبعا الأخلاق والدين» ، بمعنى أن رسالته رسالة إنسانية ليس لها حدود زمانية أو مكانية ، وأن به قوة كامنة تستطيع أن تحرر نفوس البشرية من قيود الأجناس والألوان والعصبيات .

وخلاصة رسالة الإسلام عند إقبال هى اقرار الحرية وتدعيم العدالة وتوطيد المحبة بين البشر . وهو يقول فى هذا الصدد : «ليست غاية

الإسلام منحصرة فى الواردات الـذاتية التى تجعل المرء بمعزل عما حوله من الأشياء وعمن حـوله من الناس ، بـل بـناء للـتربية التى تجعل الفرد صالحا لأن يـكون منه ومن غـيره مجتمع صالح له أنظمته القويمـة» و«إن العصبيات التى تدعو إلى البغضاء والتنفير هى وضيعة مهيـنة ليس لها فى الإسلام وجود» .

وإذا كان محمد إقبال صاحب فـكرة الهند الإسلامية التى تحققت بانشاء الباكستان ، فالهدف الذى كان يصبو إليه هو «إشهاد العالم أمـة مثالية تؤثر فى حياة المسلمين جميعا ، وربما امتد أثرها كذلك إلى جميع أقطار المعمورة» .

واضح إذن أن فيلسوفـنا لـم يـكن يمـيـل إلى القـوميات ولا إلى الإمبراطوريات التى تقضى على عـواطف المحبة والأخوة وتبذر بـذور البغض والحرب ، بـل إنـه كان يحـلم بعالم مطمئن لا يخضع لسلطان السياسة ، ولا يساوره الهم والخوف والياس ، عالم سعيد يهتدى بهدى الدين ، ويؤمن بالقيم الرفيعة ، ويجعل المادة خادمـة للروح «لأن المادة ظلمة وكثرة وفناء ، والروح نور ووحدة وبقاء» .

تلك رسالة تعاطف وأخوة وسلام ، يوجهها شاعر فيلسوف ، لا إلى المسلمين فقط ، بل إلى ضمير الإنسان .

وآراء محمد إقبال فى الجمال مرتبطة أوثق رباط بفلسفته العامة ، وعلى الخصوص بـذلك الجزء من فلسفته الـذى يطلق عليه اسم «فلسفة الذات» . وخلاصة هذه الفلسفة أن حياة الانسان تتجلى فى «الذاتية» أو الشخصية ، وأن المثل الأعلى للـوجـود الإنسانى هو الوجود الذى تحققت

فيه قوة الشخصية وتربية الذات فبلغت أعلى مقام . وهو يقول فى «ضرب الكليم» :

ربب الذات بالرعاية تبصر
كف ترب يشيع فى الكون نارا

وهو يرى أن «شخصية الإنسان من الوجهة النفسانية هى حال من التوتر ، ودوام الشخصية على هذه الحال ، فان زالت هذه الحال تبعتها حال الاسترخاء مضرة بالذات» . كما يرى أن معاناة الشدائد والمحن وممارسة الحرية والابتكار تقوى الذات وتزكيها ، وأن الاسترخاء والتقليد والروتين يضعفها ويوهنها . وهو يقول فى «ضرب الكليم» :

محكما كالجبال عش ، لا ضعيفا
واهن النار طائشا كالهشيم

ويقول عن مقام الذات واستقلالها :

لها فوق أوج الثريا مقام
جليت بها وتجلت صفاتك
آمن ذات غيرك تعمر قلبا
معاذ الإله ! ترى أين ذتك ؟

وقد كان لفلسفة الذات هذه أثرها العميق فى تصور إقبال للجمال ، فقد رأى أن ذاتنا معيار القيم الإنسانية بوجه عام ، ومعيار الحسن والقبح بوجه خاص . فالجميل عنده هو ما تدركه الذات فى سموها واعتلائها ، والقبح هو ما تدركه فى هبوطها واستفالها :

عالـــم الذات بـــه علو وســـفل
واعـــتراك القبح فيـه والجمـال
فى اعـتـلاء الـــذات ما يبدو جميلا
وقبـيح مـــا بـــدا فى الاسـتفال

ويرى إقبال ان الفن ينبـغى أن يصور لهيب الحياة الأبدى الـذى لا ينقطع ، فلا قيمة للفن الـذى يخرج شرارا واهنا لا يلبث أن يخمد . وحياة الأمم تـدوم بـدوام إبداعها وإعجازها فالفن الـذى لا ابداع فيه ولا اعجاز عاريـة لا تـدوم . إن كان نسيم الصباح المتمثـل فى شعر ، واللحن المنبعث من الموسيقى يـذبل أزهار الرياض ولا ينضرها ، فـأى نسيم هـو : فان لم تنفذ نظرات الفنان إلى سر الـكون وحقائق الأشياء فما هى بمجدية ولا قيمة لها .

وقـد كان إقبال من المعجبين بالقـوة إعجاب «نتشه» بها ، فكان لذلك الإعجاب أثره فى نظرته إلى الجمال . كان يرى أن الجلال يفوق الجمال بما يتجلى فيه من قـوة وما يبعث فى النفوس من رهبة . لـذلك يرى فى الشجاعة التى تتجلى فى ركوب الأخطار جلالا ، ويرى فى سجود الأفلاك للقوة روعـة وبهاء . بـل ذهب الشاعر إلى أنـه هو لا يجب أن يعذب إلا بنار قوية تلتهب التهابا :

وأرى جمالا فى بهـــاء أن ترى
فى سجـــدة للـقـوة الأفـــلاك
ولنـغمة من دون نـــار نـفخة
مـــا الحسن إلا بـالجـــلال يحـاك
لا أرتضى نـــار الجزاء ولـــم تـكن
وهـــاجـــة ولـهـيـبـهـــا دراك

ومن أجل ذلك لا يعجب بالنهر يساير الأرض ، بل يعجب بنافورة قوية تقذف الماء عاليا فى الهواء .

وخلاصة مذهب إقبال فى الفن الجميل أنه ينبغى أن يصور ذات الفنان ، فالذات العاشقة المتحررة المقدرة نفسها تنطلق من قيود هذا العالم المتغير ، وتتدرج فى سلك الخلود ، وتفلت من سلطان الجبر ، فيكون فنها حرا مثلها .

ويرى إقبال أن الفن الذى يعبر عن قوة الذات وحرقة الحياة ، الفن الذى يفتح القلب ويبرىء من الخوف والغم ويرفع النفوس ، هو فن حلال . أما الفن الذى يضعف الذات ويميت القلب ولا يقبس من نار الحياة فهو فن حرام . وهذا ينطبق على الشعر والموسيقى والغناء وسائر الفنون .

لهذا كان إقبال ينفر من فنون الرخاوة والمذلة ، ويروى أن الشعر ، وكل فن ينبغى أن يكون فى حدة السيف ملائما لمعركة الحياه ، مهما تكن صورته . ولذلك أخذ يحذر الشرقيين من الفنون المستعارة التى تدعو إلى الرقة والترف وتوقظ الجسم وتنيم الروح .

والفنان عند إقبال يسعى دائما مسوقا بما فى نفسه من شوق إلى الكمال وعشق للجمال إلى أن يخلق فى ذاته وفى العالم من حوله مثلا أعلى خالدا . فرسالته رسالة حياة وإيقاظ وحب وأمل .

محمد إقبال فى مدينة الرسول ﷺ

للعلامة أبو الحسن الندوى

لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر مدة حياته فى حب النبى ﷺ والأشواق إلى مدينته ، وتغنى بهما فى شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس فى آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع ، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول ﷺ لجسمه الضعيف الذى كان يعانى الأمراض والأسقام ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوى ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلق فى أجواء الحجاز، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بماشاء قلبه ، وحبه وإخلاصه ووفاؤه[1] وتحدث إليه عن نفسه وعن عصره، وعن أمته ، وعن مجتمعه وقد فاضت فى هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعانى والحقائق التى كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة اطلاقها ، وقد رأى أن فرصتها قد حانت وهذا أولها ومكانها ، فكان شعره فى النبى ﷺ من أبلغ اشعاره وأقواها وكان حشاشة نفسه وعصارة عمره وتجاربه وكان تصويرا لعصره وتقريرا عن أمته وتعبيرا عن عواطفه .

١- ليس هذه الحديث من الاستغاثة فى شىء إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب استعمله الشعراء قديما وحديثا .

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات وهو يتخيل أنه مسافر إلى مكة والمدينة يهوى به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء يتخيل بشدة شوقه وحبه أنها أنعم من الحرير وأن كل ذرة من ذراتها قلب يخفق فيطلب من السائق أن يمشي رويدا ويرفق بهذه القلوب الخفاقة ، ويحذر الحادى بما لا يفهمه فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته : وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثول بين يدى الرسول فيصلى ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه وبلاده : والفترة التى يعيش فيها ، وعن الأزمات والمشاكل التى تعانيها وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية ، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والأمانة التى حملتها وأين هى من ماضيها وخصائصها ، يرثى لها تارة ويبكى ويشكوها مرة ويعاتب ويشكو غربته فى وطنه ووحدته فى مجتمعه ، وضيعة رسالته فى أمته ، وقد سمى هذه المجموعة : «هدية الحجاز» كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الإسلامى ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة وقد أربى على الستين ووهت قواه فى سن يفضل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ، والسفر إلى الحجاز شاق مضن ، وقد نصحه الأطباء والأحبة بالراحة والهدوء — ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبى نداء الشوق ويقول : «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبى وكبر سنى ، أغنى وانشد الأبيات فى سرور وحنين ، ولا عجب فان الطائر يطير فى الصحراء طول نهاره ، فاذا أدبر النهار وأقبل الليل ، رفرف بجناحية وقصد وكره ليأوى إليه ويبيت فيه .

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة وهى وكر طائر الروح ومأزر المؤمن فى أصيل حياتى ، وفى سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب أما رأيتم الطائر إذا جن الليل أسرع إلى وكره .

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيرا حثيثا ، وقد قال لها : رويدك يا حبيبى فان راكبك لاغب ومريض ، وكبير السن ، فمشت فى نشوة وطرب ولم تبال كأن الصحراء حرير تحت أرجلها .

يسير الشاعر فى هذا الركب الحجازى الذى يحدو بالصلاة على النبى ﷺ ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها فى جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيحدو وينشد أبياتا من شعر العراقى[1] والجامى فيتساءل الناس من هذا الأعجمى الذى يغنى ويحدو بلغة لا نفهمها ولكنها نغمة تشجى القلوب وتملؤها إيمانا وحنانا حتى يذهل الرجل فى هذه الصحراء عن الغذاء والماء ؟

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه فى الطريق ، من سهر ، وعناء ، وقلة طعام و شراب ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول بل يقترح على سائه أن يأخذ طريقه أطول حتى يعيش فى هذه الأشواق ، وفى هذا الحنين مدة أوسع وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق .

وهكذا يطوى محمد إقبال هذه المسافة فى سرور وحنين ، حتى يصل إلى المدينة فيقول لزميله : تعال يا صديقى نبك سرورا ونتحدث

١ـ شاعران فارسيان لهما قصائد وأبيات سائرة فى الآفاق فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

ساعة ونرسل النفس على سجيتها فان لنا شأنا مع هذا الحبيب الذى أسعدنا به الحظ بعد طول فراق وشدة اشتياق .

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة ثم يقول : لا عجب فان المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع ، لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك .

ولا يلبث محمد إقبال وهو فى هذا الفيض من السرور والسعادة أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندى ، يذكر آلامهما ، وآمالهما ، فيذكر كل ذلك فى بلاغة الشاعر ، وصداقة الرائد ، وما أجملهما اذا التقيا يقول :

«ان هذا المسلم البائس ، الذى لا تزال فيه بقية من شمم واباء وأنفة الملوك وعزة الآباء لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله ، لوعة القلب واكسير الحب ان قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف سر ذلك .

بماذا أحدثك يا رسول الله . عن آلامه ورزيئته ، حسبك انه هوى من قمة عالية ، انه هبط من تلك العلياء التى وصلت به إليها ، وكلما ارتفع المكان الذى يسقط منه كان ألمه شديدا ، وكانت الصدمة عظيمة ، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة الهاوية ، من قمة المجد العالية» :

«انه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائها فى الصحراء ، بعيدا عن غايته ومنزله ، حسبك من هذه الأمة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب أنها تعيش من غير إمام .

«إن غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، وان الكتاب الذى

فتح به العالم وضعه فى بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه الأتربة ونسج عليه العنكبوت» .

«انه أصبح بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين و إهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين» .

«وان عينه فقدت النور ، وان قلبه حرم السرور . ان رزيئته أن يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور» .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم الذى كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء وحاضره القاسى الكالح ، وكيف صعب عليه ان يتقشف ويعتمد على نفسه ، ويكدح فى الحياة وما أبلغ قوله :

«انه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك وقد ربيته بالفواكه فشق عليه البحث عن رزقه وقوته فى الصحراء» .

ويتذكر محمد إقبال فتنة اللادينية التى توجهت الى العالم الاسلامى ويعرف محمد إقبال ــ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ــ أن سببها النظر المادى البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التى يعيشها كثير من الناس ، ويعتقد أنه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية إلا الحياة التى تقوم على الحب والزهد والحياة التى كان يعيشها أبو بكر الصديق ، المحب الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التى يسيطر عليها الحب والزهد ، وإذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها .

إنه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر والضعف فى المادة بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التى التهبت فى صدورهم ويقول : «إن أولئك الفقراء ــ المسلمين الأولين ــ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم فى صف واحد ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ولما انطفأت هذه الجذوة فى صدورهم انطووا على نفوسهم ، وأووا إلى الزوايا والتكايا .

وإنه ليستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يخجل كل مسلم ، يرى فيه مالا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ، ما يندى له الجبين حياء ، يذكر «إقبال» ذلك كله ويطرق رأسه حياء أو خجلا ، ويقول فى صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز : «ان جملة القول ما كنا جديرين بك يا رسول».

ويلقى نظرة على العالم الإسلامى ، وقد جال فى أنحائه وعرف مراكزه فيشكو ضعفه وفقره المعنوى ويقول فى إجمال : إن المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرة لا تملك غذاء القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) غلب عليها التقليد ، فهى تردد ما تلقته فى الماضى فى غير ابداع وابتكار ، وهى كثور الطاحون يدور فى دائرة واحدة ، أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيبا حزينا ، فليس فى نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويثير الطموح أنه شعر بارد يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت» .

ويقول : «قد ضربت فى مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذى يفرق منه الموت فلم أر له عينا ولا أثرا» !! .

ويذكر السر فى ضعف المسلمين وتشتت أهوائهم وخمودهم فيقول : «لقد شق على ما أراه من سوء حال المسلمين يوما وشكوت إلى ربى ، فقيل : ألا تعرف هؤلاء الذين يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب ؟ يعنى أنهم يملكون مادة الحب ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه فقلوبهم تائهة وعقولهم مضطربة وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور ، وهى حياة من رزق القلب ، وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب وجهل المحبوب ، إنها لا شك حياة عذاب وشقاء وحياة حيرة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله بل ينتقد رجال الدين فى يأسهم من المسلمين وقطعهم الرجاء من نهضتهم وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول فى عتاب وتألم» : إن أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين وإلى الحياة بمنظار أسود ويقول : «إن المسلم وإن كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره , لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وانه وان ضمير الملوك وتفكيرهم أنه وان جماله جلالا ، وكانت له سطوة لا تطاق» .

وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه ، فيحكى حكايتها ، ويشكو مايعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول : «إنى أستحق العطف والعناية فانى فى صراع عنيف ، وحرب دامية مع عصرى المادى» .

ولا شك أن إقبال قضى حياته فى صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما ، وانتقدهما وزيفهما فى شجاعة وعلى بصيرة وخبرة ، وقد كان مربى جيل جديد

مؤمن بالله واثق بنفسه ، معتد بشخصيته وشخصية الإسلام كافر بالأسس المادية والتفكير المادى الذى قامت عليه الحضارة الغربية وحق له أن يقول : «لقد أذنت فى الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومى ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب ، لقد كان ثائرا على فتن عصره وكنت ثائرا على فتن عصرى» .

ويذكر تمرده على العلوم الغربية وتفلته من شباكها واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة «كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ويأخذ الحب ويطير بسلام» ، وكذلك كان . فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالما .

ثم يقول فى افتخار واعتزاز : «يعلم الله أنى دخلت فى أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن آرزأ فى عقيدتى ، وخلقى وصلتى بك ، وقد جلست فى نارها بشجاعة وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن إبراهيم — عليه السلام — مع نار نمرود» .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التى قضاها فى عواصم أوربا بين الكتب الجافة والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع والجدال الفاتن ، والمظاهر الخلابة : فيقول : لقد بقيت هذه المدة ذاهلا عن نفسى جاهلا لشخصيتى ، حتى لما وقع بصرى على لم أعرف نفسى» .

ويقول : لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئا كثيرا ، وتناولت من خمر حانته كأسا دهاقا ، ياله من صداع اشتريته ، لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يالها من فترة مظلمة قضيتها من حياتى ، حرمت فيها لذة الحب ونعيم الطلب ، إن دروس الحكماء قد صدعت

رأسى ، وكدرت بالى ، ذلك لأنى نشأت فى حضانة الحب والإيمان فلا يناسبنى ولا يملأ فراغ نفسى إلا العاطفة والحنان» .

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التى تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : «إن العالم الدينى لا يحمل هما ، إن عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع ، لقد زهدت فى صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم» .

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز لأنه يحمل علما كثيرا ، وعقلا كبيرا ... ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب ، فما أفقر العالم الدينى الذى يحمل علما جما ، ولسانا بليغا ، وعقلا مستنيرا ، ولا يحمل دمعة فى عينه ، ولا لوعة فى قلبه انه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها .

ثم يحكى عن نفسه ، ويقول : «إننى لم أبع نفسى وضميرى لأحد ... ولم أستعن بأحد فى حل مشاكلى ، ذلك لأنى اتكلت على غير الله مرة واحدة فسقطت عن مقامى وعوقبت بالهوان مائة مرة» .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه فى حزن وألم ، فيقول «إنى أحترق بنار شوقى وحبى واستغرب أنى خلقت فى عصر لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض فى عصر لم يعرف لوعة القلب ولم يذق لذة الحب ، أنا غريب فى الشرق والغرب ، أعيش وحدى ، وأغنى وحدى ، قد أتحدث إلى نفسى ، أخفف من أشجانى وآلامى» .

ويقول : «إن أخوانى لم يعلموا بما قلت لهم ، إنهم لم يجنوا الرطب من نخل شعرى ، إليك أشكو ياسيد الأمم ، من أناس لا ينظرون إلى إلا كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتنى يا رسول الله أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ولكن هؤلاء القساة يقترحون على أن أنوح على الأموات فى الشعر وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتنى به» ؟

ويشكو فى توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره فى العلم الذى كان يحمله والرسالة التى يقوم بها فى شعره ويقول : «عرضت قلبى عسى أن يستأسره أحد فلم أر فيه راغبا ولا له طالبا ، وأبحت ثروتى ، وما يحويه صدرى فلم أر لها مقدرا ، فليعمر حبك قلبى ، وليشغل حديثك لسانى ، فانى لا أجد فى العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة منى» .

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم عبدالعزيز بن السعود — باعتباره ملك الحجاز فى عهده — وهو خطاب موجه إلى جميع ملوك العرب وزعمائهم وعظمائهم .. يحذره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ثم على ما عنده ، يقول : «اضرب خيمتك حيث شئت فى الصحراء .... ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ، ولاتنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام» .

من نفحات إقبال شاعر الإسلام الأكبر

للدكتور أحمد الشرباصى

لقد جرى العرف الباكستانى الحديث على وصف الشاعر إقبال بوصفين هما : شاعر الإسلام وملهم الباكستان ، والوصفان صادقان كل الصدق فى صاحبهما وهو بهما جدير كل الجدارة ، فقد عاش إقبال للإسلام يدرسه ويتغنى به ويدعو إليه فى شعر قوى عميق وفلسفة دقيقة مثيرة وإيمان ثابت وطيد .

وكان إقبال ملهم الباكستان لأنه أول من نادى بفكرتها وصرح بالدعوة إليها فى وقت كان التفكير فى ذلك الأمر يعد ضربا من ضروب الخيال البعيدة ، وفى وقت كانت جميع العوامل الظاهرة تدعو إلى الابتعاد عن ذلك التفكير ، ولكن الشعراء الأتقياء الأصحاء هم الناس وهم الذين يرون ما لا يراه سواهم ولقد كان إقبال يرى بعين الخيال وطنا مؤمنا ، ينهض فى شبه القارة فيكون أملا للإسلام والمسلمين على أنه من حق إقبال أو من واجب القائمين بتخليده وتمجيده ألا يجعلوه ملهم الباكستان فحسب ، فانه ملهم للمسلم أينما كان ، لأنه عاش يردد قوى الهتاف وعذب النغم حول تعاليم الإسلام وسنة محمد ﷺ وأمجاد المسلمين .

وإذا كان اختلاف لغة إقبال عن لغات كثير من المسلمين سببا فى الحيلولة بينهم وبين ينابيع إقبال الفياضة فمن الواجب على المشتغلين

بشأن إقبال أن يتعجلوا نقل الآثار الإقبالية كلها إلى لغات العالم الإسلامى الذائعة وفى طليعتها اللغة العربية لغة القرآن المجيد ولغة محمد عليه الصلاة والسلام ويوم يتم نقل آثار إقبال إلى لغات المسلمين سيكون ملهما لهؤلاء المسلمين جميعا لا للباكستان الشقيقة وحدها ، وأظن أن هذا مما تسر به الباكستان وتفرح له ، «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» . وقد يزيد هذا المعنى الإسلامى تأكدا أن إقبال عليه الرحمة . طعم أول ما طعم من مائدة المسلم الأساسية المشتركة بين عباد الله المؤمنين جميعا وهى مائدة القرآن الكريم ، فقد حدث إقبال عن نفسه بأن الفضل فيما أنشأه من شعر ونثر يعود إلى القرآن الكريم .

كان إقبال قد تعود أن يقرأ القرآن بعد صلاة الصبح . وكلما رآه والده يقرأ سأله ماذا تصنع يا إقبال ؟ فيجيب : أقرأ القرآن ، ومرت ثلاث سنوات والقراءة تتكرر من الولد والسؤال يتكرر من الوالد والجواب هو نفس الجواب .

وذات صباح قال إقبال لأبيه : ولكن لماذا تسألنى عن شىء أنت بجوابه عليم فأجاب والد إقبال : إنما أردت أن أقول لك : اقرأ القرآن كأنه نزل عليك ! يقول إقبال : ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت :

ولعل هذه المائدة القرآنية الربانية العجيبة ، الحافلة بالطعوم والآكال المثيرة للعقل والخيال ، الذاهبة بقلب المؤمن فى كل مجال سماوى وافق علوى هى التى أوجدت فى نفس إقبال تلك الهمة البيعدة التى لا تقف عند حد ، ولا تقنع فى باب الكمالات بغاية ، وقد ترجم إقبال

عن تساميه الموصول ترجمة قوية أجراها على لسان الشاعر فى حوار له مع الحور العين فيقول :

ماذا أقول وفطرتى ... لا ترتضى دعة المنازل
قلبى على فلق كما ... تهفو الصبا حول الخمائل
فاذا نظرت إلى جميل ... رائع حلو الشمائل
خفق الفؤاد إلى الذى ... يعلوه حسنا فى المحافل
فمن الشرار إلى النجوم ... إلى الشموس رقى آمل
انى ليهلكنى أنوار فما ... أعوج على المراحل
وإذا شربت من الربيع ... الكأس تسرر فى المفاصل
أشدو بشعر آخر ... وربيع الآتى أغازل
طلبى النهاية فى الذى ... لا ينهى فيه المسائل
لا صابر نظرى ولا ... قلبى عن الآمال غافل

ولو أن إقبال اقتصر فى ثقافته على البيئة الشرقية لظن الغافلون بآرائه الظنون ولقالوا : عنه : إنه صورة لمجتمعه الشرقى الرجعى المحافظ ، ونموذج لمواطنيه الهائمين خلف عتيق الخيالات والتصورات ، ولكن شاعر الإسلام تنقل وارتحل ودرس فى الغرب كما درس فى الشرق ونال ثقافات ودرجات من انجلترا ، وألمانيا ، وسو يسرا ثم عاد إلى شبه القارة وهو أكثر إيمانا بربه وأوثق يقيناً بدينه وأشد صلابة فى روحه الإسلامى وأبعد همة فى التبشير بتعاليم محمد ﷺ وبدلنا على هذا الإيمان عند إقبال أن أحد زملائه فى جامعة كمبردج سأله : لماذا بعث الله الأنبياء ومؤسس الأديان من آسيا ولم يبعث أحد منهم من أوربا فأجابه إقبال ساخرا : لأن العالم مقسم بين الله والشيطان ، ولما كانت آسيا

نصيب الله كانت أوربا من نصيب الشيطان : فقال قائل : قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان : فأجابه : رسل الشيطان هم زعماء سياسة الخداع والمكر فى أورباء : ولعل إقبال قد زاد رأيه فى الغرب إيضاحا حين قال :

أهدت الشام إلى الغرب نبيا
هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا
من قمار ونساء وخمور

ليس غريبا بعد هذا على إقبال كما أن ليس غريبا علينا ان يعلق شاعر الإسلام أكبر أمله على المسلم فى إصلاح العالم وإشاعة الحق ومجاهدة الباطل ولذلك نراه فى شعوره يكرر الحديث عن ذلك المسلم واضعاً إياه بصفات البطولة والمجد . ولم أر شاعرا يتصور للمسلم صورة مثالية عالية كتلك الصورة التى يرسمها إقبال فى مواضع كثيرة من شعره . إنه يصور المسلم حينا كانه ماء فى رقته وحديد فى شدته يهزأ بالصعاب ويعلو على التراب ويسرى مع الأفلاك ويجرى مع الأملاك :

يبتسم المسلم فى سلمه
عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصره الفولاذ فى عزمه
إذا دعا الحرب ونادى النفير
يمشى على الأشواك والنا
رو السيف ويمضى سأخرا بالعذاب

فهو ترابى ولكنه
حر طليق من قيود التراب
المسلم الصادق فى عزمه
ينازع الأقمار تاج الفلك
لا يجعل العصفور صيدا له
لكنه يرقى لصيد الملك

وها هو ذا يتحدث عن المؤمن فيراه فى تصرفاته الحكيمة وكلماته القويمة دليلا على الخالق وبرهانا على ألوهية البديع الخبير ففيه طهارة وقوة ورحمة وفيه سمو واستعلاء وفيه عدالة ووفاء وإذا ما جاءت أوقات السكينة والرحمة ، تفجر قلب المؤمن بالحنان والسلام فكأنه الندى يداعب الأكمام وإذا ما أقبلت ساعات البأس ولحظات الصدام . كان الطوفان الجارف أو السيف الصمصام :

إن للمؤمن العجيب الشأن
كل حين جديد شأن وآن
هو فى قوله السديد وفى الفعل
على الله واضح البرهان
فيه قدسيته إلى جبروت
ومن القهر فيه والغفران
إن تؤلف هذه العناصر كان
المسلم المستعلى على الحدثان
هو ترب سما يجاور جبريل
ويأبى الحلول فى الأوطان

لست تدرى بسره فتراه
قارئا وهو صورة القرآن
فيه عزم على القضاء دليل
وهو فى العالمين كالميزان
هو برد الندى بقلب شفيق
وبقلب البحار الطوفان
ليله والنهار لحن حياة
فى انسجام كسورة الرحمن

ويتحدث إقبال عن المؤمنين فنراه يصفهم بالتوكل الصادق العازم المقدم :

«ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا» .

وهم لا يعرفون الخوف ولا يعرفهم :

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ، ولوم الضعيف الفقير من هؤلاء المؤمنين على أطغى الطغاة وأفجر البشر لماخاف ولا فزع ولقال كلمة الحق لا يخشى فيها لومة لائم وما كان ذلك إلا لأنهم يثقون بالله ويرجونه ويسألونه ولا يسألون أحدا سواه :

وترى المؤمنين فى مواطن الهواء ومواقف الفزع فاذا كالجبل رزينة وثباتا ، ولا عجب فانه من كملة قنعوا ورضوا فصاروا أغنياء وهو لذلك يدعو المسلمين إلى ترك الحزن ويحرضهم على فقر الاستغناء لأن أعراض الحياة وملذاتها ليست غرض الأحرار ولكنها قيود العبيد ، يقول إقبال من قصيد طويل :

المؤمنون علـى عنا   يـة ربهم يتوكلون
لا خوف يفزعهم ولا   هم فى الحوادث يحزنون
لومر أضعفهم عـلى   فرعون يجتز الـرؤسا
لأراده فى الإفصاح ها   رونا وفى الإيمان مـوسى
إنى رأيت الخوف فى   الـدنيا عـدوا للعمل
هـو مطفىء نـور الرجـا   وسالب كـنز الأمـل
المؤمن الـوثاب تعصمه   موج الـهول السكينة
والخائف الهياب يغرق   وهـو فى ظـل السفينة

وهكذا لا تكون مغالين حين نقرر أن إقبالا قد عاش وهمه أن يرسم الصورة الكاملة للشخصية المسلمة المؤمنة . ولعله قد نجح فى ذلك نجاحا بعيدا ولعل من أسباب نجاحه أنه كان فى نفسه مسلما مؤمنا وأنه يقول ويعمل ، وأقرب مثال على صدق إقبال إنه كان يتحدث عن شجاعة المؤمن وترحيبه بالموت فيقول :

لا أرى مـؤمنا يخالجه الخو   ف إذا أقبـل القضاء عليه
يتلـقى الـردى بصبر جميل   وابتسام الـرضى عـلى شفتيه

ولما حانت ساعة الإمتحان لإقبال وهى ساعة الموت ظهر لنا صدقة فيما قال : فقد استقبل الموت وكانه عروس تزف إليه على هوى وتشوق ، وجعل يقول عن إيمان ويقين : إنى لا أرهب الموت ولا أخشى الردى ، إنى مسلم أستقبل المنية راضيا مسرورا .

محمد إقبال : الداعية الاسلامى المجدد

للدكتور حسن عيسى عبدالظاهر

كان العالم الإسلامى شعوبا وأوطانا فى النصف الأول من هذا القرن يعانى كثيرا من مظاهر التخلف ووطأة الغزو الاستعمارى والفكرى، وقد ظهر فيه مصلحون تنادوا على النهوض به فى كل مجال ، ومن هؤلاء المصلح الشاعر الفيلسوف الداعلة المجدد (محمد إقبال) الذى نشأ وبرز فى بلاد الهند .

مولده :

ينتسب محمد إقبال إلى أسرة يرجع أصلها إلى براهمة (كشمير) وأسلم أحد أجداده قبل ثلاثة قرون فى عهده الدولة المغولية على يد الشيخ (شاه همدانى) أحد أئمة المسلمين آنذاك ، ثم هاجر جده من قرية (لوهر فى كشمير) إلى مدنية (سيالكوت من ولاية بنجاب) .

وفى هذه المدينة ولد داعيتنا المسلم المجدد من أبوين صالحين تقيين ، إذ كان أبوه متصوفا كادحا فى كسب رزقه عاملا لدينه ودنياه ، وكانت أمه على صلاح وورع حتى أنها كانت تتحرج أن تأكل

من وظيفة زوجهـا إذ كان يعمل مع رئيس عرف بأكل الرشوة ، مع أن راتب وظيفة زوجها لم يكن من مال هذا الرئيس ولكن كذلك اقتضاها ورعها .

نشأته ومقوماتها :

وقـد تميزت نشـأة محمد إقبـال بعوامل دفعت به إلى ميدان الإصلاح والتجديد فى الفكر والحركة الإسلامية :

(أ) فقد حباه الله تعالى ذكاء نادرا ، وذهنا صافيا ، وعقلا واعيا، فكانت لهذه المواهب أثرها فى نشأته واتجاهه .

(ب) وتربى فى أحضان والدين صـالحين انعكس أثر صلاحما على نشأته وسلوكه فقد كان أبوه يقظا لنبوغ ابنه يتعهده بتوجيه الفكر والسلوك معا ، . ومما يذكره عنه الابن مبكرا قوله له حين رآه يكثر قراءة القرآن من صغره (يا بنى إن أردت أن تفقه القرآن فـاقرأه كأنه أنزل عليك). وقد كان إقبـال يعد وصية أبيه هذه له ممـا أثر فى حيـاته ، وكان لأمه ورعها أثر كبير فى سلوك ابنها حتى ليذكر أثرها فيه بقوله (ساميت النجم بتربيتك . . . . . وكان فخر الآباء والأجداد بيتك . . . كانت قدوة فى الدين والدنيا) ؛

وقد كان إحساس إقبـال بفضل والديه وأثرهمـا فيه عميقا فكـان دائم العرفان لهما بالجميل ويقول فى شعره : (منيتى أن أضع جبينى على أقدام الوالدين) ؛

(ج) وحين درج فى دور العلم ومراحله صادف كثيرا من الأساتذة الذين كان لهم أثر كبير فى توجيه فكره وسلوكه حتى أنه ليعبر كثيرا بالقول والعمل ــ وهو فى تألق مجده ــ عن فضل وأثر هؤلاء الأساتذة فيه .

منهم: الأستاذ (مير حسن) الذى كان له أثره ــ بعلمه وسلوكه ــ فى تربية إقبال وتوجيهه إلى مواصلة طلب العلوم الحديثة بجانب العلوم الإسلامية ، وقد أشاد به إقبال كثيرا فى شعره ، ولما عرض عليه لقب (سير) اشترط لقبوله أن يمنح أستاذه هذا لقب (شمس العلماء) فأجيب إلى ما اشترطه .

ومنهم : (السير توماس أرنولد) صاحب كتاب (الدعوة إلى الإسلام) فقد تلمذ عليه إقبال فى الهند وفى انجلترا حتى أن (توماس) اختاره ليخلفه فى عمله بالجامعة حتى اضطر إلى الانقطاع عنه بعض الوقت ، ولم يأل إقبال جهدا فى توثيق صلاته بالعلماء .

(د) كما نال إقبال اعجاب أساتذته وزملائه وتلاميذه بسعة علمه وكثرة اطلاعه وسداد رأيه فاتجهت إليه الأبصار مبكرا ؛ ويصف لنا أمين مكتبة جامعة البنجاب نهم إقبال فى المطالعة فيقول : (إنى لم أر أحدا مثل إقبال فى الحرص على مطالعة الكتب والنظر فيها والاستزادة منها) .

وقد حفظ كثيرا من القرآن الكريم ونال حظا كبيرا من الثقافة الإسلامية من كل فروعها ، كما نال قسطا وافرا من الثقافات الأوربية ، وتنقل فى جامعات أوربا ، ونال أعلى الدرجات العلمية .

هذه العوامل كلها : مواهبه ، وبيئته ، وأساتذته ، وقراءاته ، تضافرت على تكوين فكر إقبال وسلوكه .

منهجه فى الاصلاح والتجديد !

جمع إقبال بين ثقافات الشرق والغرب عن بصيرة وتفتح، ودرس مناهجهما فى الإصلاح ، وعايش المجتمع الشرقى ، بروحانياته ،

والمجتمع الغربى بمادياته ، ولم تذب شخصيته فى واحد منهما ، وأحس أن كلا المجتمعين فى حاجة إلى اصلاح وتجديد للفكر والسلوك معا.

(أ) لكنه وهو ينهج سبل الإصلاح لم ينشده من خلال سبحات فكرية وأحلام شعرية مجردة يتأملها من برج عاجى أو انعزالى .

كما لم ينهج عمليا خلوا من فكر واضح متبلور فى عقله و نفسه .

وقد بدا له حينا أن يهجر الشعر الذى ضمنه فلسفته فى الإصلاح، وأن يغامر فيما يغامر الناس فيه .

ولكن أشار عليه بعض أصدقائه وأساتذته ــ ومنهم توماس أرنولد ــ أن يدوم على نظمه .

ومن هنا فقد جمع إقبال فى منهجه التجديدى بين الفكر والعمل، والأمل والجهاد، والدعوة والإقدام ، فأنتج فى كلا الميدانين الفكرى والسلوكى .

(ب) وكانت دعوته للإصلاح موجهة لكل الناس بعامة وللمسلمين بخاصة ، ويقول فى إحدى قصائده : (منيتى أن أكون خادم خلق الله ما حييت ، لا أتمنى عمرا خالدا) ، وقد علم مواطنوه ذلك عنه حتى أنه بعد إحدى محاضراته فى مدينة (ميسور) قام أحد الأساتذه الهنادك يعقب عليه بقوله (يقول المسلمون : ان الدكتور إقبالا لهم ، والحق أنه لنا جميعا لا يختص جماعة أو دينا ، فان افتخر المسلمون بأنه أخوهم فى الدين ، فنحن نفتخر بأن إقبالا هندى) .

(ج) وهو إذ يأخذ بكلا المنهجين الفكرى والعملى فانه كذلك يشارك فى كلا الميدانين بانتاجه العقلى العميق والغزير وبجهده الدائب المتواصل حتى الممات .

ففى ميدان (الفكر) كان فكره عالميا جوالا جمع ما شاعت له سعته من معارف الشرق والغرب وأثمر روائع خالدة وآثاراً كثيرة بالإنجليزية والفارسية والأوردية ، وترجم كثيرا منها إلى العربية ومن انتاجه : هدية الحجاز وأسرار الذات ، ما ينبغى أن تعمل يا أمم الشرق ، اصلاح الأفكار الدينية فى الإسلام وهو من أعظم ما كتب إقبال ــ وهو عبارة عن عدة محاضرات ألقاها فى مدراس وغيرها سنة ١٩٢٨م، وجمعت فى كتاب وقد ترجم إلى العربية باسم (تجديد التفكير الدينى فى الإسلام) .

وقد أخذ من التاريخ الإسلامى أمثلة لفلسفته ، وصورا لشعره ، وكان كثير الاقتباس فى شعره وانتاجه من القرآن الكريم حتى لتحس أن القرآن كان على وقلبه ولسانه .

وكان فيلسوفا نابغا وشاعرا فذا ظل شعره ــ وما زال ــ نشيدا يتردد بين مسلمى شبه القارة الهندية وكان بذلك كله من الذين يظهرون فى مواكب التاريخ الحضارى بين الحين والحين . . .

وفى الميدان العلمى شارك كثيرا فى مجالات الإصلاح والنهضة فى بلاده ، وفى كثير من البلاد الإسلامية ، فكان العقل الواعى ، والحركة الدائبة وراء فكرة إنشاء دولة باكستان الإسلاميه حتى ليقول عنه مؤسسها القائد الأعظم محمد على جناح (كان إقبال لى صديقا، وإماما، وفيلسوفا ، وكان فى أحلك الساعات التى مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخرة لم يتزلزل لحظة واحدة قط) ؛ وانتخب فى الجمعية التشريعية بغير عناء ، ولا تزال خطبه ، ونشاطه فيها شاهدا له ؛ واشترك فى عدة مؤتمرات فى أوربا ، كما قدم إلى القاهرة سنة ١٩٣١ واحتفلت

به مجامعها الدينية والأدبية والعلمية وألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين فى حفل كبير عن (تطور الفكر الاسلامى) ، كما زار الأزهر ، وشهد المؤتمر الإسلامى فى بيت المقدس، وكان له جهد كبير فى سبيل قضيته وزار أسبانيا ورأى الآثار الإسلامية هناك ومن أعظمها وأخلدها (جامع قرطبة)، واستأذن حكومة أسبانيا آنذاك للصلاة فيه، وصلى فيه، وكان لذلك روعته وأثره فى نفسه وصداه فى شعره ، وعمل بالتدريس فى كلية الحكومة ثم تركها بعد سنة ونصف واشتغل بالمحاماة بقدر ما يتكسب رزقه فقط ، وكان لا يقبل وكالة فى قضية حتى يعلم أن موكله محق فيها ، وأنه يستطيع أن يأخذ له بحقه ؛ وقد سأله خادمه يوما عن سبب تركه العمل بالكلية الحكومية فقال له: (إن خدمة الإنجليز عسيرة، وأعسر ما فيها أنى لا أستطيع أن أحدث الناس بما فى نفسى ما دمت فى خدمتهم ، وأنا اليوم حر ، ما شئت قلت) ، ومع ذلك لم يقطع صلته عن الجامعة بالعمل فى لجانها ومجالسها ، كما كان له نشاط كبير فى إصلاح التعليم وقد دعى لأفغانستان للنظر فى برامج التعليم هناك وشارك فى تقريره ما يجب عمله وأخذت الحكومة بآرائه ، ثم انه كان فى أوربا كثيرا التحدث عن الإسلام وثقافته وحضارته ، وألقى كثيرا من المحاضرات فى هذا ونشرتها له الصحف الكبيرة، وكان شديد الأسف على جهل أهل الغرب الإسلام والفلسفة الإسلامية .

فلسفته ونظريته فى الاصلاح والتجديد :

١ ـ موقفه من الحضارة المادية فى أوربا : المتابع لفكر إقبال يرى أنه بدراسته الواسعة للثقافات الأوربية ومعايشته لمجتمعاتها لم يعجب بحضارة أوربا ولم تأخذه بهجتها وفيها يقول : يا ساكنى

ديار الغرب ليست أرض الله حانوتا إن الذى توهمتموه ذهبا خالصا سترونه زائفا وإن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها ؛ إن العش الذى يبنى على غصن دقيق لا يثبت) .

٢ ـ موقفه من روحانية الشرق : دعا فى شعره إلى نبذ التصوف الأعجمى الذى يؤدى إلى السلبية فى الحياة ، وبشر بالتصوف العملى الذى يدعو إلى العمل والجهاد شأن أئمة الصوفية المجاهدين واتخذ قدوة لذلك من سيد نا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الخلفاء الراشدين والصحابة المهديين الذين مدهم نماذج من المتصوفة العاملين لمجد دينهم ومجد الحياة والأحياء. وقد مجد فى أشعاره الشخصيات الإسلامية الرائدة ، فعد عمر وعليا رضى الله عنهما ممثلين للقوة فى الحق والاستقامة والعدل ، وعد السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ممثلة للمرأة المسلمة فى إيمانها وجهادها وعنايتها بتربية أبنائها ورعاية زوجها .

٣ ـ وكانت المشكلة الأساسية عنده هى إعادة بناء الإنسان فكان تركيزه فى إصلاحه وتجديده على بناء الشخصية الإنسانية على نمط مؤمن حى ، وتمثل هذه الناحية فى فلسفته الإصلاحية نظريته التى أسماها (الذاتية) وكتب فى ذلك كثيرا ، ويعبر عن دوافعه إلى هذا الاتجاه فى رسالة وجهها إلى ولده وفيها يقول (إن فى عصرنا هذا قحطا فى الرجال، وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله ، فان تكن سعيد الجد لقيت أحد أصحاب البصائر ، وإلا فاعمل بهذه النصائح . .) وتتلخص أفكاره فى نظريته هذه أن كمال الذات له ثلاث مراحل :

(أ) إطاعة القانون الإلهى، وأن التوحيد المطلق ينفى عن النفس الاستكانة للمخاوف والأطماع .

(ب) وضبط النفس ، ولا يكون إلا بنفى الخوف والشهوات ، وأن هدف الإنسان الدينى والأخلاقى هو إثبات الذات لا نفيها .

(جـ) والنيابة الإلهية بتحقيق الإنسان معنى خلافته عن الله فى الأرض ليعمرها باسم الله وحده فالحياة رقى مستمر ، وجهاد لتحصيل الاختيار ، وهى تسخر كل الصعاب التى تعترض طريقها ، وأن الوقت هوالحياة، وهذه المرحلة يكون الإنسان فيها مسيطراً على العالم ، مسخراً قوى الكون نافخا الحياة فى كل شىء ، ويرد العالم إلى الإخاء والسلام .

٤ ـ أما الأمة عنده فلا تنظيم بغير شريعة وساوك ، وهو يرى أن شريعة الأمة، الإسلامية هى القرآن ، وأن ساوكها مؤسس على الاقتداء بالآداب المحمدية .

(١) التوحيد : فهو سر الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان وهو الدواء الذى يميت الخوف والشك ويحيى العمل والأمل ويقهر كل صعب ويذلل كل عقبة فهوالروح فى أمتنا وبه الحياة والقوة ، ومقصد حياة المسلم هو إعلاء كلمة الله ، وتعاليم الإسلام واضحة بينة وهى أن ذاتا واحدة تستحق العبادة ، وأن كل الكثرة التى ترى فى العالم مخلوقة .

(ب) الرسالة الإسلامية الخاتمة : ومقصودها بعد التوحيد المساواة والحرية والأخوة بين بنى آدم حررت الإنسان من العبودية لمخلوق مثله أيا كان ورفعت عنه الأغلال ؛ ولا ينتظم أمة بغير شريعة وشريعة الأمة الإسلاميه القرآن، وحسن سيرة الأمة يكون بالتأدب بالآداب المحمدية .

ويرى أن على المسلم اليوم عملا شاقا : عليه أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون انقطاع عن الماضى؛ وهو بذلك يرى أنه مع ضرورة مراجعة المسلم دائما لقضايا الإسلام وفهمها والتيارات الفكرية التى ترد إليها أو تصدر عنها فانه لابد مع هذا الاجتهاد مؤسسا على النظر للإسلام كله ، والبناء على الماضى دون ما انقطاع عنه حتى تتصل الحلقات الحضارية للفكر الإسلامى ولا تنبت فروع عن جذورها .

لقد ظل إقبال طول حياته ينفث حياة وقوة وإباء وجهادا ودعوة إلى الحرية وثورة على الجبروت وإيقاظا للمسلمين خاصة وتبصيرا لهم بمكانهم فى هذا العالم ومكانتهم فى تاريخه وحضارته ولقد ترك وراءه صدى واسعا ولا يزال الباحثون والمصلحون يجدون فى فكره و حركته التجديدية ما يشغل أقلامهم ويبين لهم عن سبل الإصلاح ، يقول عنه أحد معاصريه وهو مولانا أسلم الجراجبورى : إن اقبال أعظم شعراء المسلمين ، ان كلامه ليفيض بالحقائق الإسلامية ، ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل ، إن اقبالا حذق علوم الغرب ، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التى بصرتهم بحقيقة الإسلام وعظمه وملأت قلوب الشباب الغافل النائم بحب الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، .

تحية إلى إقبال فى ذكرا وسلام عليه فى الدعاة العاملين .

محمد إقبال

فلسفة القوة والعمل فى الإسلام

للدكتور عبدالمعطى محمد بيومى

تلك سنة الله فى الأمم والشعوب ، تهرم وتشيب كما يشيب الأفراد ويهرمون ، بل قد تتعرض أحيانا لما يتعرض له الأفراد من التحلل والفناء حتى إذا تلقت دما جديدا نفضت عنها غبار الشيخوخة وقامت من جديد ، قوية ناهضة تؤدى رسالتها فى هذا الوجود .

والأمة الإسلامية وحدها هى التى حباها الله نعمة الخلود فهى أمة خالدة تحمل فى جوهرها الأصيل عناصر البقاء لأن كتابها — وهو مبرر وجودها — باق ممتد البقاء فان تهرم هذه الأمة وتضعف حينا من الدهر فان الله يبعث من بنيها من يصيح فيهم صيحة اليقظه «فاذا هم قيام ينظرون» .

والناظر فى هذه الأمة يدرك فى وضوح أنها بدأت منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تترنح أمام الضربات الظالمة التى انهالت عليها من هنا وهناك من كل عدو حقود حتى بلغ ترنحها إلى حد التواء أعناق الكثيرين من أبنائها عن مبادئها وانحرافهم عن مقدراتها الأصيلة حتى بات واضحا أن هذه الأمة فى حاجة إلى شىء ما من دم جديد يبعث فيها الحياة ويجدد القوة .

قد يكون هذا الشيء مفكرا أصيل الفكر قوى النفس ، يضع لها المعالم والشارات لتضع بتوجيهه قدمها على الطريق الصحيح ، وقد يكون شاعرا قوى القلب صادق التعبير عميق الإحساس ينفث فيها من روحه ويمنح قلبها حبات قلبه وقد يكون زعيما قوى الإيمان قوى الإرادة يصنع من الأمة النموذج الحى .

وفى العقد الثانى من هذا القرن بلغت أمة الإسلام بعض غايتها المنشودة فى رجل من أبنائها أراده الله هذه المرة من الهند شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير الدكتور محمد إقبال .

اجتمعت لهذا الفيلسوف المجدد كل مواهب الإنسانية الراقية ، فوهب الإيمان والفكر والشعر جميعا إلى جانب قوة الإدراك وصدق الإحساس .

لخص حياته كلها وغايته منها فى كلمات .. قال :

«إنى لم أكن يوما فى إحدى الجماعات أو الهيئات قائداً ولا جنديا أخضع لقائد ، فقد استنفدت أعوام حياتى الماضية دراسة واطلاعا لحقيقة الإسلام وتفهما لفنون السياسة والآداب وكان تأثرى واتصالى بروح الأصول والتعاليم الإسلامية مما أكسبنى فى حياتى بصيرة خاصة اكتشفت على ضوئها أن الإسلام حقيقة عالمية ، وما دام المسلمون محتفظين بهذه الروح قوية كاملة ، فانى سأحاول ما وسعنى الجهد أن أبعث من تلك البصيرة فى نفسى قوة تشعل فى شغاف قلوبهم جذوة الشعور وتركز أصول الإسلام ومبادئه التي هي وحدها الضمان لتحقيق النتيجة المرجوة .

... لو أشهدنا جعلنا دستور الحياة ونظام العمل قائمين على أصول الإسلام ومبادئه فى الهند وحدها لأشهدنا العالم أمة مثالية تؤثر فى حياة جميع المسلمين وربما امتد أثرها كذلك إلى جميع أقطار الكون وهذا هو الهدف الذى نصبو إليه حين نحاول أن ننشىء فى الهند مدنية ممتازة وحضارة متميزة ، كانت تلك إذن غايته :

- تجديد الأفكار الدينية الإسلامية لاتخاذها نظام حياة ومنهج عمل .
- بعث الروح الإسلامية من جديد واستنهاض همم المسلمين .

وقد كان مخلصا الإخلاص كله فى جهاده لهذه الغاية التى ملكت عليه كل قلبه وفكره فلم يدع وسيلة إلا طرقها من وسائل السياسة أو وسائل الفلسفة والشعر أو الآراء والخطب المتناثرة هنا وهناك .

وأعتقد أنه بالإمكان رسم صورة مصغرة لجهاد إقبال فى ناحيتيه السياسية والفلسفية فى هذا المقال :

١ـ ففى مجال السياسة : عمل إقبال على تأكيد شخصية المسلمين فى الهند فكان أول من نادى بانفصال المسلمين فى دولة خاصة تشكل من الولايات التى يغلبون فيها وقد رأى أن قيام هذه الدولة سيحقق أمرين أولهما : تقديم الإسلام للعالم كله عن طريق نموذج دولة عصرية تهتدى فى قوانينها ونظام حياتها بالإسلام حتى يدرك العالم ما فى هذا الدين من عناصر التقدم والحضارة الراقية .

ثانيهما : تجنب الظلم الواقع على المسلمين فى الهند وانهاء المذابح التى كان يروح ضحيتها الآلاف من المسلمين وجمع المسلمين فى وحدة شاملة تجنبهم شرور الخلاف .

ذلك أن المسلمين فى الهند تحملوا بأمانة عبء الكفاح من أجل الحرية والاستقلال فما أن أثمر كفاحهم حتى طرحت فى الأفق فكرة «القومية الهندية» فأحدثت هذه الفكرة ردود الفعل مختلفة بين المسلمين الذين انقسموا فى شأنها شيعا وأحزابا .

«فارتضى كثير منهم — كما يقول نهرو — تلك القومية محاولين أن يوجهوها الوجهة التى يريدونها ، وكثيرون عطفوا عليها وظلوا مع ذلك بعيدين عنها شاكين فيها فى حين أن كثيرين غيرهم شرعوا فى التحول العظيم إلى اتجاه انفصالى كان استشراف إقبال الشعرى قد هيأهم له» .

والواقع أن إقبالا لم يهيىء النفوس لفكرته فى اقامة دولة باكستان باستشرافه الشعرى فقط بل وضع كل طاقاته فى خدمتها والترويج لها بوحى من عقيدته وإحساس ملح بأنه ينصرها ، وأعانه قوة بيانه وقدرته على إيراد الحجج لتدعيم ما يذهب إليه كما أعانه فهمه لكثير من روح الشريعة الإسلامية وتفاصيلها الدقيقة من تفنيد الفكرة التى طرحت وكانت ترمى إلى تعايش المسلمين والهندوس فى قومية هندية مشتركة رغم الخلافات الدينية كما هو حادث فى مصر ولبنان مثلا .

قال : «ولكن ما أبعد هذه المقارنة وما أشد الفرق بين الهند وسواها فبينما يجيز الإسلام الاتصال بأهل الكتاب على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلى حد إجازة تزويج المسلم بالكتابية ، وبينما تتحقق المصالح المشتركة بالتعاون فى الأمة الواحدة ترى الهنادك يعتبرون المسلمين نجسا ماديا فلا يعاملونهم ولا يختلطون معهم ولا يتحببون إليهم من قريب أو من بعيد وكذلك ينظر المسلمون إليهم كوثنيين ليس لهم من الأرض نبوة ولا من السماء كتاب ورغم ما يبذله المسلمون

من التسامح فما يزداد هؤلاء إلا تنكرا واستخفافا وامتهانا للمسلم والعمل دائبا على استئصال شأفته وابادة ملته» .

ومع وضوح هذه الأدلة وقوتها فان الرابطة الإسلامية بالهند ظلت عشر سنوات (١٩٣٠-١٩٤٠) منتظرة أن تأتى «القومية الهندية» بالخير المرجى للمسلمين دون جدوى فبدأت العمل من أجل باكستان سنة ١٩٤٠ ولم تكن الفكرة بحاجة إلى اقناع الشعب الهندى المسلم بل كانت حلم الجميع ولذلك تحقق حلم الفيلسوف سنة ١٩٤٧ وقامت دولة باكستان .

ومهما يقال عن باكستان فكرة وتطبيقا فان إقبالا والذين صنعوا حلمه طالما حذروا من أمرين شديدى الخطر : أن تتحول باكستان إلى العلمانية أو القومية العرقية فهل نجت باكستان فى مسيرتها من تأثير هذين الخطرين ذلك موضوع آخر .

على أنه بالرغم من جلال فكرة باكستان وكفايتها لتملأ حياة المنتمين إليها إلا أن فلسفة إقبال كانت أشتمل وأوسع من حدود الهند وكانت على امتداد العالم الإسلامى كله .

والرائع فى فلسفة إقبال أنها جاءت بعد تراث هائل من الفكر البشرى وبعد قرون طويلة من الحوار بين الإسلام والفلسفة اليونانية هذا الحوار الذى جهد فيه فلاسفة المسلمين عل التوفيق أو التلفيق بين الفكر الإسلامى واليونانى ولم ينج أحد من هؤلاء إلا قليلا من التأثر بفلاسفة اليونان والدهش والانبهار أمامهم .

لكن إقبالا يترفع أمام المفكرين اليونان وغيرهم من المعاصرين ترفع الغنى الذى يملك مالا يملكه غيره ، فنرى أن أفلاطون ، وأرسطو

وغيرهما من المتأثرين بهما إنما كان يقودهم التفكير الغنمى بمعنى تفكير القطيع الذى ينساق وراء شهوات العقل على غير عاصم من وحى سماوى يقيه شر الزلل .

يقول فيما ترجمه عنه الدكتور عبدالوهاب عزام :

راهب الماضين أفلاط الحكيم
مذهب الشاء تولى فى القديم

ويقول : «واعتراضى على أفلاطون هو فى أصله اعتراض على كل النظم الفلسفية التى تقصد إلى الفناء لا البقاء والتى تغفل المادة وهى أكبر العقبات فى سبيل الحياة وتدعو إلى الفرار منها لا إلى تسخيرها والتسلط عليها .

هو موقف فلسفى عام إذن يتخذ إقبال ليقرر به حقيقة وليها جم به كل ما عداها أما هذه الحقيقة فهى أنه لابد من الاتصال بالمادة لتسخيرها لا الزهد فيها والفرار منها ومن هنا فهو ينتقد بشدة فكرة الفناء الصوفى الذى يتوصل إليه بالانعزال عن المادة وخلع ربقتها كما يهاجم فكرة وحدة الوجود التى تقوم على أن الإنسان نقطة تائهة فى محيط الكون وعلى هذه النقطة التائهة ـــ الذات الإنسانية ـــ أن تمعن فى السكر حتى تصل إلى الفناء فى الله .

يقول : «إن حالة السكر فى اصطلاح الصوفية تنافر الإسلام وقوانين الحياة وحالة الصحو «وهى الإسلام» موافقة لقانون الحياة ، وإنما قصد الرسول ﷺ إلى إنشاء أمة صاحية (فى حالة الصحو) ولهذا تجد فى صحابة رسول الله ﷺ الصديق الأكبر ، والفاروق الأعظم ولا تجد حافظا الشيرازى» .

ولذلك كان طبيعيا أن تكون الذات الإنسانية ومحاولة تأكيدها هى نقطة الانطلاق فى فلسفة إقبال يقول :

«الحياة كلها فردية وليس للحياة الكلية وجود خارجى . حيثما تجلت الحياة تجلت فى فرد أو شىء والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثل له .

... أرى أن هدف الإنسان الدينى والأخلاقى إثبات ذاته لا نفيها وعلى قدر تحقيق انفراد أو وحدته يقرب من هذا الهدف ، قال الرسول ﷺ : «تخلقوا بأخلاق الله» فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فردا بغير مثيل» .

أنا ــ أو خودى ــ أو مين[1] ــ أو الذات الإنسانية عند إقبال هى إذن مركز الحياة تقوى بتحديد الأهداف النبيلة والسعى إلى تحقيقها وتضعف بالسؤال والمذلة وكلما كان الهدف أكبر وكانت المعاناة فى تحقيقه أكثر كلما عظمت الذات وقويت .

يقول : «طوبى لمن لا يزال فى أثر المحل .. !

أى لذة فى الاضطراب قبل الوصول» ؟!

ويؤكد إقبال أن القرآن الكريم حدد للإنسان المسلم المقاصد النبيلة وهى قيم الحياة الكريمة وما على المسلم إلا أن يثبت ذاته بالجهاد من أجلها .

والطريق إلى تربية الذات مراحل ثلاثة :

١ـ طاعة الله سبحانه .

١ـ خودى أنا بالفارسية ومين أنا بالأوردية .

٢ـ ضبط النفس بتوحيد الله ونفى الخوف والشهوات .

٣ـ النيابة لله فى الأرض[١] بمعنى أن يسيطر الإنسان على العالم المادى ويسخر قواه لقوة الإنسان بعد إحكام بنائه الروحى وهنا يستحث إقبال المسلمين لينهضوا بهذه الناحية فهم أولى من غيرهم لأن كتابهم الدينى يدعوهم إلى ذلك .

يقول : «يامن عى حماره طريق الحياة .!

ومن غفل عن معركة الحياة .!

قد بلغ المنزل رفاقك وأنزلوا ليلى من محملها .

وأنت كقيس فى الصحارى هائم !!»

وفى العلامة بين الفرد والجماعة لم يكن إقبال يرى أن يميل ميزان الارتباط بينهما على حساب ناحية دون أخرى ويرى أن المذاهب الاجتماعية المادية المعاصرة سمن وعفن وأن الانتاج والرفاهية المادية مع خراب القلب لا تجدى فتيلا .

ولذلك فان المسلم ببنائه المادى والروحى ، هو الإنسان الكامل وله فى نظره وجودان : وجود إنسانى يشارك المسلم به كل إنسان ، ووجود إيمانى له فيه عقيدة خاصة ورسالة معينة وهو حى خالد لا يمكن أن ينقرض لأنه حقيقة عالمية «إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة» .

ولقد وجه إقبال كثيرا من رسائل إلى العرب خاصة ، وطالما

١ـ د. عبدالوهاب عزام . محمد إقبال حياته وفلسفته وشعره .

أهاج هـذا الفيلسوف تلك الجذوة التى اتقدت بها قلوب العرب حينا من الدهر فأشهدوا العالم صورا مشرقة ومثلا لم تتكرر .

يقول : «ان غريزتكم العربيـة الإسلامية مـيزان للخير والشر ، وأنتم ورثة الأرض إذا تـألق نجمكم فى آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين وطوى بساطهم .

... لقد تشتت شمـل أمتك يا محمد يا رسول الله ﷺ فـالى أين يلجأ المسلم الحزين ؟! وإلى من يأوى ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذى عرفت بـه ! فالى من أشكو ألمى وأين أجد من يساعدنى على آلامى وأحزانى ؟ وماذا يفعل حادى أمتك ؟ وكيف يقطع الطريق الشاسع ويطوى السفر البعيد»؟!.

ومع هذه اللوعـة والشكوى فـلم يـكن إقبال يائسا من طلوع الفجر فى العالم الإسلامى مهما طال الليل والظلام .

يقول : «إذا رأيت النجوم شاحـبـة منكدرة تخفق ، فاعـلم أن الفجر قريب» !

محمد إقبال

للاستاد الدكتور عبدالودود شلبى

لم تغب عنى هذه اللحظات التى وقفتها خاشعا أمام ضريحه المسجى بالجلال بجواو «بادشاهى مسجد » فى مدينة لاهور .

كل ما قرأته عنه تمثل أمامى فى صورة نورانية تتحرك فى إطارها كل معانى العظمة . . لم يعد يفصل بينى وبينه حاجز من الحياة أو الموت . . . . كنت روحا تناجى روحا . . لقد نسيت أننى أمام ميت . . ؟ والا بماذا أعلل هذا الحوار بينى وبينه وقد مضت على وفاته ستة وثلاثون عاما . . ؟

وقد عاش إقبال حياته كلها ساعيا عاديا . كان روحا تحلق فى آفاق سامية . كان قبسا من نور الحقيقة التى أتى بها محمد صلوات الله وسلامه عليه . .

وقد عاش إقبال حياته كلها ساعيا وراء هذه الحقيقة . . .حقيقة الإيمان المستعلى على نقائص الدنيا فما أتفه الحياة حين تخلو من الرجال الذين يزرعون فى القلوب شجرة الحجة . . وما أوحشها دنيا حين يصطبغ كل شىء فيها بالكذب والغش والخديعة ؟

يقول إقبال فى إحدى قصائده :

« رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا كأنه يبحث عن شيء . قلت له يا سيدى : تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة الوحوش والدواب . . . ضقت بها ذرعا . . . خرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم . . .

فلقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى . قلت له : لا تتعب نفسك انى لا أرى لهذا الكائن الذى تبحث عنه أثرا . . قال الشيخ : إليك عنى يا هذا . . . فأحب شيء إلى نفسى أعزه وجودا وأبعده منالاً . . . » .

ترى هل تغير المضمون والأمل فى هذه الأسطورة التى صور بها « إقبال » واقع الحياة فى عصره ومجتمعه ؟؟

يقول إقبال نفسه مجيبا على هذا السؤال :

« لقد ضربت فى مشارق الأرض ومغاربها . عرضت قلبى عسى أن يشتريه أحد أبحت ثروتى لمن يطلب . . . فتحت صدرى لمن يرغب . . . إنى أحترق بنار شوقى وحبى . وأعجب أن أخلق فى عصر لا يعرف الإخلاص . . .

أنا غريب فى الشرق والغرب . . . أعيش وحدى . وأغنى وحدى . . . هل كان « إقبال » يائسا ؟ إن اليأس فى ضمير المسلم جريمة . ، وما خفق قلب بالإيمان والأمل كما خفق قلب هذا الشاعر العظيم الذى عاش حياته شديد الإيمان قوى العقيدة . . فقد كان وهو صبي يبدأ يومه بتلاوة القرآن الكريم ويدخل عليه والده يسأله عما

يفعل . فيقول أقرأ القرآن . . وظل عل هذا الحال ثلاث سنوات يسأله أبوه نفس السؤال . ويجيب « إقبال » بنفس الجواب. وذات يوم قال لوالده : لقد مضت ثلاث سنوات وأنت تسألنى نفس السؤال وأجيبك بنفس الجواب ثم لا يمنعك ذلك من تكرار السؤال كلما رأيتنى أقرأ القرآن . فماذا تقصد ؟ .

قال أبوه : إنما أردت أن أقول لك : اقرأ القرآن كأنما تسمعه من الله . . . ومنذ ذلك اليوم بدأ « إقبال » يتفهم القرآن ويقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبس ومن درره ما نظم .

وحين دعاه المرحوم « نادر شاه » ملك أفغانستان أهداه « إقبال» نسخة من المصحف وكتب فى إهدائه إلى الملك هذه الكلمات : « إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق . فى ضميره الحياة ، وفى سطوره الحق ، والعزة والعدل » .

فليس من المعقول أن يكون صاحب هذا الإيمان يائسا من شىء . إن اليأس صنو الأنانية والحرص « وإقبال » لم يكن كذلك لم يكن فى دنياه طامعا ولا عليها حريصا . لقد عاش زاهدا ومات ناسكا . وكان يقول مفتخرا :

« إنى من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ولكنى غنى النفس أبى » ان الموت أفضل من رزق يقص من قوادمى . ويمنعنى من التحليق فى السماء . . اذا لم تعرف رازقك كنت فقيرا الى الملوك. وإذا عرفت خالقك افتقر الملوك إليك . .

لقد عاش « إقبال » للجمال والحق والخير . كان قيثارة علوية تهتف لبنى الإنسان فى كل أمة . . إنه مسلم . . والمسلم كالشمس

يتوهج ضوؤها الساطع حيث طلعت . . وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجته إلى الماء والنور والحرارة . إن المسلم جسمه من تراب لكن قلبه من نور . . والمسلم « حقيقة » عالمية لا تعرف حدوده الطين والأرض . ليست دجلة والنيل والدانوب الا أمواجا صغيرة فى بحره المتلاطم . وكل ما كان لله من أرض وبلاد فهو بلده ووطنه . . ومن هنا بدأت وحشة « إقبال » ومعاناته . . لقد رسم هذا الأمل فى قلبه صورة المسلم كما يريده . وبحث عنه فلم يجده . فحلق كالطائر الغريب فى سماء العالم يبحث عن رجل . لقد درس فى كمبردج وفى ميونيخ . وحصل على أرقى الشهادات فى الفلسفة والاقتصاد . وزار اسبانيا وفرنسا وإيطاليا . سافر يبحث ويدرس ويناقش وينقب . وحصل من ثقافة الغرب وعلومه على الكثير الوافر . ثم ماذا ؟

لقد رأى الخواء ينخر فى روح الحضارة الغربية بكل مذاهبها وأنظمتها . الخواء الذى تختنق فيه روح الإنسان وتهدر فيه قيمه وخصائصه . . إنه الخواء الذى يهدد وجود الإنسان على ظهر هذا الكوكب ويعرقل مسيرته الهادية إلى عالم أرقى وأفضل . . .

« إن أوربا تفلس . . الروح تموت عطشا فى سرابها الخادع . . فيها حضارة نعم . . . ولكنها حضارة تحتضر . . وإن لم تمت حتف أنفها فسوف تنتحر غدا وتذهب . . فأساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة وكما يقول دكتور كاريل أن الحضارة الغربية تجد نفسها فى موقف صعب . لأنها حضارة تولدت من خلال الكشوف العلمية . ومن خلال شهوات الناس ونزواتهم والعلاج الوحيد الممكن معرفة أكثره عمقا بأنفسنا وبأرواحنا . . لقد ذهبنا نبحث عن الروح فى

« المعدة » تفعل الشيوعية . إن هذه وتلك تعيشان على الشره والنهامة وخداع الإنسانية . . الشيوعية تقضى على الدين . والرأسمالية تقضى على الروح . وكلاهما موت للإنسان الذى استخلفه الله على هذه الأرض . . .

« فالغياث الغياث من الفرنجة » لقد أصبح العالم خرابا بغزوهم وإغارتهم وأنت أيها المسلم فارس الأمل والمستقبل . . .

ولكن أين هذا المسلم ؟

هذا هو السؤال الذى شغل « إقبال » طويلا . وبحث عن جوابه كثيرا . لقد كان المسلم كما يقول أرنولد : « رسالة الله الأخيرة » موجة من أمواج بحر الإسلام العارم كبحر الحياة . وبحر الوجود . يتبدل العالم ولا يتبدل كيانه » .

فهل وجد « اقبال » هذا المسلم الذى تحدث عنه أستاذه أرنولد . . . الصورة الكئيبة للعالم الإسلامى وحاضره لا تساعد على اكتشافه وقد بذل « إقبال » قصارى جهده فى مقابلة هذا الفارس المنتظر لقيادة العالم وخلاصه . . . لكن . . .

« واحسرتاه . . . لقد قابلته مرتاعا تطير نفسه شعاعا من الخوف . . . لا يزال ركبه تائها فى الصحراء . إن غمده فارغ ككيسه. وان الكتاب الذى فتح به العالم وضعه فى بيته الخرب على طاق تراكمت عليه الأتربة ونسج عليه العنكبوت. . ان عينه فقدت النور ان رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لماذا يحيا . . ؟

عجبا لك أيها المسلم تجلت لك الآفاق وغابت عنك نفسك . . ؟

وكما فعل « ديوجين » حين ترك « أثينا » إلى قمم الآلب . ولى « إقبال » وجهه إلى العرب . ان التاريخ لا ينكر للأمة العربية فضلها فى نشر الإسلام . فاذا بالعلوم والفنون والآداب الإسلامية تضىء معالم الطريق لحضارة رفيعة عالمية يتفيأ ظلالها البشر فى أخوة وسماحة من غير تعصب ولا تزمت . وإذا بالإسلام بمعناه الحضارى الفسيح مهوى الأفئدة . وموضع التجلة . وإذا بالعرب فى الشرق والغرب أساتذة فى الهندسة والطب والأدب والموسيقى والاختراع .

ومن الذى أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن ونشر رسالته فى فى العالم ؟ من الذى أطلعه الله على سر التوحيد فنادى بأعلى صوته لا إله إلا الله . . ؟ إنه ذلك العربى الذى حمل لواء العقيدة الجديدة فانطلق بها يزيح عن كاهل الإنسان أوزار القرون المظلمة . . ويمهد أمامه الطريق لحياة أكثر عدلا وطمأنينة . وأقام ــ ولأول مرة فى تاريخ الإنسان ــ حضارة « الشمول » لحاجات الإنسان وأشواقه » .

يقول إقبال :

أيتها الأمة العربية التى كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود . . . من الذى سمع منه العالم نداء « لا كسرى ولا قيصر » لأول مرة فى التاريخ ، من الذى أطلعه الله على سر التوحيد فنادى بأعلى صوته : لا إلا إله الله . . ليت شعرى . . من خلفكم فى الحياة . . ان العصر الحاضر وليد نشاطكم وجهادكم ومازلتم سادته حتى أفلت زمامه منكم . . إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة . ولا تزال فيكم الشرارة كامنة فقوموا أيها العرب وردوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى . .

فيا رجل البادية . . ويا سيد الصحراء . . عد إلى قوتك وعزتك . وامتك ناصية الأيام . وخذ عنان التاريخ وقد القافله البشرية إلى الغاية المثلى . . . » .

* * *

لقد ودع إقبال هذه الدنيا منذ ست وثلاثين سنة وقال قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعشر دقائق . . .

« أنا لا أخشى الموت . . أنا مسلم . . ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسما . !

مصر الأزهر فى فكر اقبال

رسالة إقبال إلى الشيخ المراغى وجوابها

للأستاذ سمير عبدالحميد إبراهيم

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الحديث عن مكانة مصر ـــ وحين أقول مصر فانني أعنى مصر الأزهر ـــ فى فكر إقبال ، حديث ممتع وجذاب ويحمل أكثر من معنى ، فهو يستلزم استعراض فكر إقبال بصورة موجزة ثم عرض للوضع الثقافى لمصر ودور الأزهر فى زمن إقبال . وأخيرا أثر الأزهر الواضح فى فكر مسلمى شبه القارة الهندية ، والشواهد الواضحة الجلية لهذا التأثير والتطلع إلى المزيد ويتمثل هذا فيما سأعرضه من طلب قام به العلامة إقبال وقدمه إلى شيخ الأزهر آنذاك وهو الشيخ مصطفى المراغى . يطلب فيه أحد أساتذة الأزهر للقيام بنشر الدعوة الإسلامية فى شبه القارة الهندية . وهذا له دلالة واضحة لا تحتاج إلى المزيد من التحليل . بل هو دليل قاطع على ذيوع صيت الأزهر ومكانته العلمية وشهرة أساتذته فى أنحاء العالم الإسلامى شرقا وغربا . منارة تقشع ما حولها من ظلام كاد أن يسيطر على دنيا الإسلام على أثر هجوم وتهجم صليبى الغرب والشرق على السواء ..

زار إقبال مصر قبل أحضوره المؤتمر الإسلامى بالقدس فى ٧ ديسمبر ١٩٣١م . وفى مصر رحب به ترحيبا طيبا وأقيمت له حفلة

حضرها مفكرو مصر وعلماؤها فقد كانت شهرة العلامة إقبال قد ذاعت آنذاك وتجول العلامة إقبال فى شوارع القاهرة . وزار الأهرام ورأى أبا الهول ومشى على شاطىء النيل وتحدث فى الأمور التى كانت تشغل العالم الإسلامى ، وكان إقبال على دراية كاملة بكل ما يدور فى مصر من أفكار وحركات دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية . فقد كان الارتباط بين خطوط الفكر الإسلامى فى مصر وبين مثيلها فى شبه القارة الهندية واضحا جليا .

ففى عهد الخديو إسماعيل بدأ الطريق ينفتح أمام التدخل الغربى فى مصر . وقام العلامة جمال الدين الأفغانى بمحاربة هذا التدخل بكافة صوره وحين توطدت عرى الصداقة بين الشيخ محمد عبده وبين الأفغانى سنة ١٨٧٩م انطلق محمد عبده يحذر من التقليد الأعمى للتعليم الغربى والحياة الغربية وأن هذا التقليد لا يمكن أن يحدث ثورة حقيقية إذ أن أولئك الذين يبحثون عن الرقى لدى الغرب الآن إنما يحملون بداخلهم رغبة فى تقليد النظام الاجتماعى الغربى وعادات وتقاليد أهل الأفرنج .

والحقيقة أن مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت تموج بمسائل تبحث عن حلول لدى المفكرين القادة . وتتلخص فى الوطنية المصرية والخلافة الإسلامية والقومية العربية والصراع بين القديم والجديد . وباختصار غرق أهل مصر فى متاهات عبر عنها إقبال بقوله :

«غرق أهل مصر فى دوامة أمواج النيل» .

والحقيقة أن نظرة قادة المسلمين فى مصر وفى شبه القارة الهندية كانت واحدة فى هذا الصدد . فقد كان إقبال يرى أن العالم الإسلامى

بالشكل الذى يدعو إليه المتفرنجة إنما هو من الناحية الحضارية «مغلوب الغرب» وقد نظم إقبال كثيرا من الأشعار يوضح فيها هذه الفكرة ويحذر المسلمين من الوقوع فريسة أضواء الغرب الخادعة . يقول إقبال فى ديوان «صليل الجرس» :

«بالأمس رأيت حلما غير بين ، رأيت مسلمى مصر والهند وقد غرقوا فى دوامة الوطنية .

يا زائرى ديار الأفرنج ، إننى أصرخ فيكم ، إنهم ليسوا قادة لنا . من الخير لكم أن تبتعدوا عنهم» .

والحقيقة أن أهم ما يميز فكر إقبال أنه بأكمله تفكير إسلامى . إذ أنه جمع أفكاره مباشرة من القرآن كما أن الروح الإسلامية واضحة فى شعره ومقالاته وكتابته . فقد كان هدف إقبال هو بناء مجتمع إنسانى متقدم سواء تقدما روحيا أو ماديا فعن طريق التقدم المادى والروحى يصل الفرد إلى الصلاح والفلاح الأخروى فقام إقبال يدعو المسلمين إلى تحصيل المعرفة الحقيقية الحديثة ولكن بطريقة محترمة ومستقلة مع تقدير تعاليم الإسلام فى ضوء هذه المعرفة وهكذا كان يخشى أن يتيه المسلمون وسط مجاهل الغرب ومتاهاته المادية ، ففكر إقبال يتمثل فى التكامل أى الربط بين المادة والروح والفرد والمجتمع ، ويتمثل فى الوسطية أى البعد عن الطرفين الحادين للانحراف والعنف . أما الحركة فى فكر إقبال فتتمثل فى القدرة على مواجهة التطور والبعد عن الجمود وعنده أن الحركة فى الجماعة الإسلامية بالاجتهاد .

أما عن مسألة الوطنية فهى لم تعجب «إقبال» حين زار مصر ، ولذا لم يعجبه الزعماء الذين قاموا فى ذلك الحين بالدعوة إلى فكرة

الوطن .. وتناسوا الدعوة إلى جمع شمل المسلمين بدلا من تفتيتهم تحت فكرة الوطن . ولم يكن إقبال يؤمن بفكرة القومية بمعناها المعروف فى أوربا . إذ أنها عنده تقوم على أساس مجتمع إنسانى ينطوى تحت الأحكام الإلهية والإرشادات النبوية وتحرر الفرد من امتيازات الجنس .

لايفتأ يحذر المسلمين من هذه النعرة الخادعة . وقد هاجم أحد قادة المسلمين بالهند لأنه قام يدعو إلى فكرة الوطنية . يقول إقبال مخاطبا حسين أحمد الديوبندى . «يامن أعلنت على المنبر من أن الأمة بالوطن ، إنك لا تدرى شيئا عن مقام محمد العربى» .

وهكذا كان الحال فى مصرنا . إذ قام بعض الزعماء بالدعوة إلى الوطنية وسموا فيما بعد بالوطنيين (وفى رأى إقبال أنها تسمية طيبة لأنها ميزت بينهم وبين إخوة الإسلام الداعين إلى الوحدة الإسلامية) .

وظل إقبال يوالى نصائحه للمسلمين بألا يقعوا فى شراك سحر الوطنية وأضوائها البراقة وها هو يشير إلى مصر ويقول :

«أيها المسلم ما زلت فى هذه الحياة على معبر ... فاترك وانزع عنك قيد المكان ...

أترك مصر .. واترك الحجاز واترك الشام أيضا ...

إن من نزّهه عمله عن كل غرض ... سينال جزاء عظيما ..

فاترك الحور .. واترك الخيام ... واترك الصبا والكأس» ...

وكان العالم الإسلامى ــ ولا يزال ــ يتطلع إلى قائد يوضح له الطريق ويقوده وسط خضم الاضطرابات التى كانت ــ ولا تزال ــ تلف العالم الإسلامى . وأوضح إقبال بكل جرأة نظريته قائلا :

مصرع : «عصا نه هو ، تو كليمي هے ، كار بے بنياد» :

ومعناه: «لو أن موسى عليه السلام موجود ولا عصا معه ، فلا أساس حينئذ لعمله».

ويكمل إقبال فكرته ويقول: «ولو ولد الكليم (موسى) مرة ثانية فمن أين له بالعصا ؟» — وموسى رمز للقوة الروحية والعصا رمز للقوة المادية . والعصا هذه الأيام فى يد الجيوش إلا أن هذه العصا لا يمكنها أن تجعل من حاملها «كليماً» آخر . ويضغط إقبال على هذه الفكرة مرة ثانية وهو يوجه حديثه إلى مصر ويقول إن القوة تظهر أحيانا فى سيف محمد وأحياناً فى عصا الكليم . كما يشير إلى أن أبا الهول هو نفسه أخبره بهذه الحقيقة : يقول إقبال فى نظم بعنوان إلى أهل مصر :

أهل مصر سے

خود أبو الهول نے يه نكته سكهايا مجهـ كو
وه أبو الهول كه هے صاحب أسرار قديم
دفعة جس سے بدل جاتى هے تقدير أمم
هے وه وقت كه حريف اس كى نهيں عقل حكيم
هر زمانه ميں دگرگوں هے طبيعت اس كى
كبهى شمشير محمد هے كبهى چوب كليم

يقول إقبال مخاطبا أهل مصر :

«إن أبا الهول نفسه هو الذى علمنى هذه الحكمة يا أهل مصر .. أبو الهول صاحب الأسرار القديمة بأن هناك قوة تتغير بها تقادير الأمم قوة لا يضارعها عقل أى حكيم .

قوة لها طبيعة تتغير مع كل زمان .. فتظهر أحيانا فى عصا الكليم وأحيانا فى سيف محمد» .

وجنبا إلى جنب سارت فكرة الخلافة بمحاذاة فكرة الوطنية . وإقبال فى الواقع بدأ حياته الفكرية والشعرية فى هذه الحقبة العصيبة من تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية والعالم الإسلامى فكان من الضرورى أن يطلع على ما فيه من حركات وأن يتجاوب معها وفى العصر الذى اشتدت فيه وطأة الاستعمار الغربى على العالم الإسلامى لم ير إقبال بصيصا من الأمل إلا فى تركيا على أساس أن فى مقدورها قيادة الأمة الإسلامية كلها . ولكن هذه الأمانى تحطمت وتحولت إلى سراب بعد حركة مصطفى المناهضة للإسلام ، فتحول شعر إقبال على شرارة ضد هذه النزعة المناهضة للإسلام وضد أتاتورك والأتراك ويتحسر إقبال : «إنكم أيها الأتراك أخذتم جوار أوربا وصحبتها مع أنكم كنتم بفضل الإسلام على مقربة من النجوم والكواكب» .

وفكرة الجامعة الإسلامية Pan Islamism عند إقبال كفكرة سياسية ليس لها وجود ولو أنها وجدت أحيانا فان ذلك يكون فى خيال الذين يتصلون بسلطان تركيا ، وجمال الدين الأفغانى الذى يرتبط اسمه بحركة الجامعة الإسلامية كان يحلم فقط بتحقيقها فى صورة حكومة سياسية واحدة للمسلمين . ويقول إقبال : «إنه من الجدير بالذكر أن نقول إنه لا توجد مثلا فى لغة إسلامية عربية كانت أو فارسية أو تركية أو أردية فقرة ترادف كلمة Pan Islamism وعلى كل حال فان الإسلام نظام اجتماعى لكل البشر وهو لم يقل أبدا بحدود قومية أو جغرافية ، ولو وضع هذا المفهوم الإنسانى نصب العين فان الإنسان أى إنسان سوف يفضل اللفظ البسيط

الواضح «الإسلام» عن لفظة Pan Islamism وهنا يمكن أن نعتقد Pan Islamism موجودة وستبقى دائما» . ويستمر إقبال فى الحديث عن فكرة الجامعة الإسلامية فيقول :

«إننى اعتبر أن لفظة Pan Islamism جعلت لتعنى نوعا من المكيدة فأفهم المسلمون فى العالم ضرورة التخطيط لنوع من الوحدة بين الدولة الإسلامية ضد الدول الأوربية .. أما عن الأفغانى فأنا لا أدرى هل استعمل هذا الاصطلاح نفسه أم لا ... ولكن الحقيقة أنه نصح كلا من أفغانستان وإيران وتركيا أن يتحدوا ضد التوسع الأوربى وهذا يعتبر قياس دفاعى نقى وأنا شخصيا أعتقد أن جمال الدين الأفغانى كان على حق فى رأيه . وهنا وهناك حالة أخرى ينبغى استخدام هذه الكلمة فيها وهى أنها تحوى تعاليم القرآن وفى تلك الحالة فهى ليست موضوعا سياسيا ولكنها تجربة اجتماعية . والإسلام لا يعترف بالجنس أو اللون أو الطبيعة وفى هذه الحالة فان Pan Islamism تعنى فقط الجماعة الإسلامية وهنا فان كل مسلم يكون Pan Islamist بل نأمل أن يكون كذلك وعلينا أن نحذف كلمة Pan Islamism لأن الإسلام هو تعبير يغطى تماما المعنى الذى ذكرته سابقا».

ولكن ماذا يقصد إقبال من كل هذا ... ؟

إقبال واضح وصريح ، والإسلام ديننا واضح لا غموض فيه ولا تعقيد ، وإقبال يتخذ فكره مباشرة من القرآن الكريم والإسلام فى رأيه لا يعنى أقامة التشكيلات السياسية أو غيرها بل يعنى ببساطة تنفيذ شعائر الدين واطاعة أوامر الخالق .

وإقبال حين وصل إلى مصر ورأى حالها وقد مالت بعض الآراء

إلى إعادة الخلافة بل اتجهت إلى تنصيب الملك خليفة ـــ رأى أن يوجه خطابا مهذبا إلى الملك وإلى أصحاب هـذا الـرأى ، يوضح لهم فيه أن فـكرة الخلافة لا تعنى الملك والتاج فالخلافـة أسلوب عمل إسلامى ينبع من داخـل القلوب المؤمنة بربـها الخاشعة لخالقها . ويـتساءل إقبال : من أين يـأتى الفاروق «عمـر» مرة ثانية ليفهم فاروق «ملك مصر» معنى الخلافة ... فما كان فى ذهن العلامـة إقبال هو خلافة أبى بـكر وعمر .. وتساؤل مستمر ، هل يمـكن أن يعود هـذا الزمان الطاهر فى عصرنا هـذا ولأن فلسفة إقبال تقـوم على الحركة فهو يتمنى أن تهب رياح الصحراء من الجزيرة العربية ، حيث نزلت الرسالـة على سيد المرسلين ، وأن تثـير أمواج نيـل مصر ، وأن تقوم هـذه الـرياح المحملة بعطر النـبوة ونقاء الرسالة المحمدية بابـلاغ رسالة الفاروق «عمـر» إلى ملك مصر فاروق . يقول إقبال :

«هبى يارياح الصحراء» من جزيرة العرب .
وأثيرى موج نيل المصريين .
وبلغى «فاروق» رسالة «الفاروق» .
بأن يمزج الفقر والملك فى نفسه .
الخلافة هى أن يـكون الفقر قرينا للتاج والملك .
فما أحسن هذه الثروة التى لا تنتهى .
يا صاحب الحظ الفتى .
لا يفلت من يدك هذا الفقر .
فبدونه تموت المملـكة بسرعة .
إن من يعرف أسرار اليقين .

يجعل النظرتين نظرة واحدة .

وقد مزجتا بنور قنديلين .

فلا تفكر فى التفرقة بين الملك والدين» .

وينهى إقبال حديثه إلى الملك قائلا :

«المسلم الذى امتحن نفسه جعل غبار طريقه سماء .

إذا كان لديك شرارة من شوق فاحتفظ بها .

فيمكن أن تخلق بها شمسا» .

ونلمح من خلال هذه الأشعار ما تنبأ به إقبال للملك من زوال ملكه .. وقد تحقق ما تنبأ به لأن التجافى عن تعاليم الإسلام كان علة العلل فى سقوط مالك مصر عن فاروق فهو فى نصحه له يكرر على سمعه ضرورة أن يستجيب لداعى العقل والقلب ، ويوصيه بأن يكون ذلك المؤمن الموقن الذى تبلغ به روحانية الدين ذروتها ويريد أن يرشده إلى قصد السبيل على أن يطرح القشور ويهتم باللباب . ففى نظره أن الحصيف هو الآخذ بالجوهر لا بالمظهر . فهذا المفكر الإسلامى يريد أن يبدى برأيه فى سياسة الملك على أساس من مبادىء الاسلام ومثله وهى مبادىء ومثل أخذ بها حكامه الأولون . فتأتى لهم أن يقيمسوا أعظم دولة عرفها التاريخ . أثرت فيما لا يحصى من شعوب فى المشارق والمغارب تأثيرا يكشف كل يوم عن مزيد وجديد .

وكما ذكرت من قبل كان العلامة إقبال على دراية كاملة بالحركات السياسية التى تدور فى العالم الإسلامى وكما نعرف قاد عرابى حركته القومية الشهيرة ثم جاء بعده المهدى «السودانى» فقاد حركة إسلامية

داخلية وجاءت هذه الحركة بعد حركة عرابى مباشرة ، وإقبال كان يعرف أن مصر والسودان بلد واحد وهو هنا يشير إلى المهدى السودانى قائلا : «الدرويش المصرى» يقول إقبال :

بوى خوش از گلشت جنت رسيد
روح آن درويش مصر آمد پديد

أى (انبعثت الروائح الزكية من بستان جنته وظهرت روح ذلك الدرويش المصرى) .

ولقد ضمن الدكتور عبدالودود شلبى هذه القصيدة بحثه للدكتوراة وأنصح القارىء بالرجوع إليها . وخلاصة القول أن إقبال يذكر مصر وأحوالها فى أماكن كثيرة من أشعاره الفارسية والأردية . إلا أننى الآن أنتقل إلى نوع جديد من الكتابة حيث يكون الناس على سجيته .. ألا وهى كتابة الخطابات حيث يكتب الإنسان إلى صديقه أو زميله يعبر بصدق عن مشاعره وإحساساته ، أقتبس هنا بعض ما كتب إقبال عن ذكرياته وهو يعبر الأراضى المصرية متوجها إلى أوربا . والسطور التالية مقتبسة من خطاب لإقبال كتبه إلى أحد أصدقائه من كمبردج فى نوفمبر ١٩٠٥م وهو خطاب من خمس صفحات كاملة تعبر عن مشاعره وهو فى السفينة من عدن حتى السويس :

«وصلنا إلى السويس ... طلع إلينا فى السفينة عدد كبير من أصحاب الدكاكين المسلمين .. اشتريت بعض السجائر من شاب مصرى وأخذنا الحديث فقلت له إننى مسلم إلا أنه لم يصدق وقال بعد أن نظر إلى «الطاقية الإنجليزية» على رأسى : لماذا تلبس «البرنيطة» . وكان عجيبا أن يتكلم الشاب بالأردية «المكسرة» فحين أخبرته إننى مسلم قال لى :

«ثم بهى مسلمان هم بهى مسلمان» «أنت مسلم وأنا مسلم أيضا» . وقد سررت كثيرا وقلت له مستفسرا : ألا يشرف الإسلام بوضع «البرنيطة» على الرأس .. فأجاب على الفور إذا كان المسلم بلا لحية فعليه أن يلبس الطاقية التركية «الطربوش» وإلا فما هى علامة كونه مسلما . وقلت ببنى وبين نفسى : «ليت هذا المنطق الطيب ينتشر فى بلادنا (أى الهند) ...»

وكان هذا الصديق المصرى حافظا للقرآن فبدأت أرتل عليه بعض آيات القرآن الكريم ففرح وأمسك يدى يعتصرها بين يديه حبا والتف حولى جميع الباعة وأخذوا يرددون : ماشاء الله ، ماشاء الله وأخذوا يدعون لى بالتوفيق فى رحلتى .. وهكذا كانت الدقائق البسيطة التى هدفت إلى بيع وشراء ليس إلا .. كانت تعبيرا قويا عن قمة الأخوة الإسلامية» .

ويستمر إقبال فى التعبير عن خواطره فيقول :

«ومرت بنا مجموعة من الشباب كان بينهم شاب يتكلم اللغة العربية بطريقة جميلة وكأنه يقرأ مقامات الحريرى ... ووصلنا إلى بور سعيد حيث رأينا المدارس والمساجد وأرسلت بعض الخطابات إلى بعض الأصدقاء إلا أنه للأسف لم يصل أى منها حتى الآن ...» .

وعن نفس الذكريات يكتب إقبال إلى أحد معاونيه فى لاهور يقول :

«وصلنا إلى بورسعيد وكانت الساعة الثالثة صباحا وكنت نائما فأيقظنى دكتور مصرى اسمه سليمان فاستيقظت وجلست معه وتقابلت

مع مجموعة من الشباب المصرى وكلهم أعضاء فى «جمعية الشبان المسلمين» ولقد سررت كثيرا بهذا اللقاء وأرسل إلينا لطفى بيه وهو من أشهر المحامين بالقاهرة سلاما على لسان الدكتور سليمان وقدم لنا دعوة لزيارة القاهرة ...» .

وأود أن أقدم فى الصفحات التالية دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على ما كان لمصر وما كان للأزهر من مكانة فى قلب وفكر إقبال . فاقبال كان يعرف جيدا مكانة الأزهر ودوره فى الحفاظ على التراث الإسلامى وأترك الآن إقبال شيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغى :

من الدكتور محمد إقبال إلى حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ مصطفى المراغى

شيخ الأزهر الشريف
أدام الله مجده

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

إن الأزهر الشريف له أهمية كاملة فى العالم الإسلامى ، وهو مركز علمى وحيد ولذلك يسرع إليه كل عطشان ليغترف من بحاره وهو المشار إليه عند كل حاجة علمية ودينية ولنا أيضا حاجة إليكم ..

إنا أردنا أن نؤسس فى قرية من قرى البنجاب إدارة مهمة لم يسبق إليها أحد إلى الآن ويكون لها شأن مع المعاهد الدينية الإسلامية إن شاء الله ..

إننا نريد أن نجمع عدة رجال من الذين فازوا فى العلوم الجديدة مع عدة من الذين تخصصوا فى العلوم الدينية ويكون فيهم صلاحية

ذهنية بأعلى ما تكون وهم مستعدون لصرف وقتهم فى خدمة الدين الإسلامى ونجعل لهم رواقا متنحيا عن شعب الحضارة الجديدة والثقافة الحديثة ليكون لهم مركزا علميا إسلاميا ونرتب لهم فيه مكتبة يكون فيها كل ما يحتاج إليه من الكتب الجديدة والقديمة وما عدا ذلك يعين لهم قائد كامل صالح تكون له بصيرة تامة فى القرآن الحكيم ويكون خبيرا بما يحدث فى العالم الحاضر ليعلمهم روح كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعاونهم على تحديد التفكر الإسلامى فى شعب الفلسفة والحكمة والاقتصاديات والسياسيات كلهم يجاهدون بعلمهم وبأقلامهم فى سبيل إحياء التمدن الإسلامى .

وهذا الاقتراح لا يحتاج أن يبين أهمية لصاحب الفضيلة كمثلكم ولذلك أرجو منكم أن تتفضلوا علينا بارسال رجل عالم مصرى متطور على نفقة جامعة الأزهر ليساعدنا فى هذا الأمر وينبغى أن يكون ماهرا فى العلوم الشرعية وفى تاريخ التمدن الإسلامى ويجب أيضا أن يكون قادرا على اللغة الإنكليزية ا . هـ .» .

ولقد حصلت على هذا النص العربى لخطاب إقبال من أحد الأساتذة بلاهور وهو الأستاذ رفيع الدين هاشمى محاضر اللغة الأردية . وهناك تكملة للخطاب لا توجد فى هذا النص الموجود حاليا بل توجد فى ترجمة أردية للخطاب ووردت فى «إقبال نامه الجزء الأول ص ٢٥١ — ٢٥٣» وهذه ترجمة عربية لهذه التكملة التى لم ترد فى النص الموجود لدينا :

«هذا بالإضافة إلى أن أعضاء الوفد المصرى الأزهرى الذى شرفنا بزيارته منذ أيام قد أخبرنى بأن الجامع الأزهر ينوى إرسال بعض

الأساتذة على نفقته إلى الهند . وإننى أطلب من سيادتكم تلبية طلبنا إذ أن هذا المركز الإسلامى الذى ذكرته لفضيلتكم سابقا أحق وأولى بأن ترسلوا إليه هؤلاء الأساتذة الذين يقومون بنشر الدعوة الإسلامية . وإننى إذ أتمنى بل أدعو الله أن ينبعث نور الدين الحق من هذا المركز إلى جميع أطراف وأكناف الهند أتمنى أن تتفقوا معى فى الرأى . وسوف أكون شاكرا لكم لو تفضلتم بسرعة اطلاعى على رأيكم فى هذا الصدد . مع وافر الاحترام والسلام» .

ولكن ما هى قصة هذا الوفد الأزهرى وما قصة هذا المركز الذى يشير إليه إقبال ..

فى سنة ١٩٣٦م عقد جماعة من الهنادكة «الاچهوت»* مؤتمرا أعلنوا فيه رغبتهم فى تغيير عقيدتهم بعقيدة أخرى . فبدأت جمعية تبليغ الإسلام نشاطا كبيرا لإدخالهم فى الإسلام كما قامت صحف مصر بنشر هذا الخبر الذى نال اهتماما كبيرا من الأزهر فرأى إرسال وفد من العلماء الأزهريين إلى الهند لتقصى الحقائق .

وطلب شيخ الأزهر الشيخ المراغى من العلامة إقبال الاستفسار عن إمكانية توفير بعض المترجمين لمواقفة الوفد أثناء زيارته للهند فكتب إقبال إلى نائب رئيس جمعية حماية الإسلام بلاهور حتى توفر الجمعية المترجمين وقال فى خطابه إلى نائب رئيس الجمعية :

وصلنى خطاب من الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر وقد نشر هذا الخطاب فى جريدة «إحسان» إذ تنوى جامعة الأزهر ارسال وفد من العلماء إلى الهند لنشر الدعوة الإسلامية وقد طلب منى الاجابة عن

* اچهوت ـ مفاها المنبوذ .

إمكانية توفير مترجمين للوفد لترجمة خطبه وتقاريره ومرافقة الوفد فى جولته بالهند ... وسوف تكون زيارة الوفد لمدة ثلاثة أشهر ... أرجو أن تعرض الأمر على المجلس حتى أتمكن من الاجابة على شيخ الأزهر فى أسرع وقت» ..

ويصل الوفد المصرى القادم من جامعة الأزهر إلى بمباى فى ١١ ديسمبر ١٩٣٦م ومنها إلى دلهى وبشاور ثم يصل إلى لاهور وكان رئيس الوفد الشيخ حبيب أحمد أفندى ونائب رئيس الوفد الشيخ صلاح الدين النجار . وقد التقى الوفد بعلماء الهند والمفكرين المسلمين وقاموا بمعاينة الادارات والهيئات الإسلامية وفى لاهور التقى الوفد بالعلامة إقبال . وأقيمت للوفد مأدبة غذاء فى فندق سبنسر الذى لا يزال قائما حتى الآن بلاهور وذلك فى ٢٧ يناير وبعدها التقطت بعض الصور للوفد مع علماء الهند وهى موجودة حتى الآن وفكر إقبال أن يصحب الوفد إلى إحدى المقاطعات الإسلامية فقد يفيد هذا فى تطوير النظم التعليمية للمقاطعة وكتب إقبال إلى شمس الدين قريشى وزير التعليم فى مقاطعة بهاولبور (وهى المقاطعة التى رفضت الانضمام إلى الهند بعد التقسيم رغم ما عرضته الهند من أموال على حاكمها الذى فضل الانضمام إلى باكستان الدولة التى نشأت لتطبق الحياة الإسلامية فى حرية وبعيدا عن اضطهاد الهنادكة) .

كتب العلامة إقبال قريشى فى ٢٤ يناير ١٩٣٧م قال فيه :

«إن علماء مصر (جامعة الأزهر) قد وصلوا صباح أمس من بشاور إلى لاهور ، ويهدف وفد العلماء إلى دراسة الحالة التعليمية لمسلمى الهند ، وفى رأيى أنه من الضرورى أن يقوم الوفد بزيارة بهاولبور . إن

شيوخ مصر من العلماء الأفاضل والأساتذة العلماء الدارسين . وإنني على يقين من أن سعادتكم وجميع أهلى بهاولبور سوف تسرون جدا بلقائهم .

ويقيم الوفد الآن فى فندق الفلاتيز بلاهور وسوف يقيم حتى ٢٧-٢٨ (يناير) فاذا تفضلتم بدعوتهم فلتبرقوا إليهم على العنوان التالى : الوفد المصرى — فندق الفلاتيز — لاهور . والسلام» .

أما عن المركز الذى يشير إليه إقبال فتتلخص قصته فى أنه فى عام ١٩٣٥م فكر رجل مسلم ويدعى تشودهرى نيازعلى (توفى فى ٢٤ فبراير ١٩٧٦م) فى إقامة مركز إسلامى وذلك بعد تقاعده من الخدمة الحكومية حتى يتمكن من خدمة الدين الجليل . واتصل الرجل باقبال وسمع منه إقبال وفرح بالفكرة واقترح عليه أن يكون المركز فى مكان تتوفر له جميع مقومات البيئة الإسلامية ويتلمذ فيه شباب المسلمين ممن لديهم استعداد حتى يمكنهم أن يوجدوا قيادة إسلامية صحيحة فى العالم الإسلامى . ووافق تشودهرى نياز على اقتراح إقبال فاشترى قطعة من الأرض (٦٠ فدانا) ووقفها لتعليم القرآن وألحق بها مسجدا ومكاتب للدرس ومكتبة وداراً لاقامة الطلبة وأماكن للسكن وغير ذلك ومما هو جدير بالذكر أن تشودهرى نياز على خان قد اتصل أيضا بالأستاذ أبى الأعلى المودودى وتشاور معه وقد وافقه الأستاذ المودودى على الفكرة وقدم إليه النصائح والإرشادات ورأى العلامة إقبال أن يتصل بالشيخ المراغى حتى يرسل أحد أساتذة الأزهر الأفاضل ليقدم خدماته إلى هذا المركز . وبسرعة تدل على ما كان عليه الأزهر من إحساس بالمسئولية — ولا يزال — تجاه العالم الإسلامى يجيب شيخ الأزهر الشيخ المراغى :

«حضرة الأستاذ الكامل الدكتور محمد إقبال .

السلام عليكم ورحمة الله . قرأت خطابكم المؤرخ فى ٥ أغسطس سنة ١٩٣٧م ويسرنى جدا ما عزمتم عليه من إنشاء معهد يضم رجالا مثقفين على الطريقة الحديثة ورجالا مهروا فى العلوم الدينية . وقد طلبتم منى إرسال عالم على نفقة الأزهر يكون ماهرا فى العلوم الشرعية وتاريخ التمدن الإسلامى وقادرا على اللغة الإنجليزية .

وإنى آسف جدا إذ أصرح لكم بأنه لا يوجد عندنا أحد من علماء الأزهر قادرا على اللغة الإنجليزية الأزهر إلا فى السنة الماضية لطلاب الكليات ..

ولا أظن أنى أستطيع إجابة طلبكم إلا بعد دعوة البعثة التى أرسلت فى العام الماضى إلى إنجلترا . وترانى هنا مستعدا لكل ما أقدر عليه . وستجدنى صريحا معك غاية الصراحة فى كل ما تريد ..

ولك تحياتى الخالصة ..

ولو عاد إقبال ثانية لرأى جامعات باكستان ومدارسها تعج بأساتذة الأزهر الكرام يحققون رغبة إقبال وأمنيته القديمة .. يعلمون اللغة العربية والعلوم الإسلامية .. يرفعون اسم مصر عاليا ويرفعون اسم أزهرها فى الآفاق .. ويرجون مرضاة الله .. حفظ الله مصر وأزهرها ووفقنا جميعا إلى خدمة الإسلام والمسلمين .

الفهرس

		صفحة
تقديم	للدكتور ظهور أحمد اظهر	ج
٢ـ فريضة إنسانية	للأستاذ عباس محمود العقاد	١
١ـ إقبال شاعر الإسلام	للدكتور محمد حسين هيكل	٧
٣ـ فلسفة إقبال وأساسها	للدكتور عبدالوهاب عزام	١٣
٤ـ إقبال من أولئك الآحاد	للدكتور محمد كامل موسى	٢١
٥ـ تحية لذكرى إقبال	للأستاذ أحمد حسن الزيات	٢٧
٦ـ إقبال شاعر فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان	للدكتور طه حسين	٣١
٧ـ إقبال الفيلسوف	للأستاذ فتحى رضوان	٤١
٨ـ ذكرى محمد إقبال	للدكتور سليمان حزين	٤٧
٩ـ رسالة محمد إقبال	للدكتور عثمان أمين	٥٣
١٠ـ محمد إقبال فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم	للعلامة ابو الحسن على الندوى	٦١

١١- من نفحات إقبال
شاعر الإسلام الأكبر للدكتور أحمد الشرباصى ٧١
١٢- محمد إقبال : الداعية
الاسلامى المجدد للدكتور حسن عيسى عبدالظاهر ٧٩
١٣- محمد إقبال فلسفة القوة
والعمل فى الإسلام للدكتور عبدالمعطى بيومى ٨٩
١٤- محمد إقبال للدكتور عبدالودود شلبى ٩٩
١٥- مصر الأزهر فى فكر إقبال للأستاذ سمير عبدالحميد ابراهيم ١٠٧